أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه في آيات القرآن الكريم

" بحث يرصد بالدراسة والتحليل مواضع أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بالتوكّل عليه في آيات القرآن الكريم "

تأليف

الدكتور عماد بن زهير حافظ

أستاذ مشارك - قسم التفسير وعلوم القرآن

كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

ح عماد بن زهير حافظ ، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حافظ ، عماد زهير

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالتوكل عليه في آيات القرآن. /

عماد زهير حافظ - المدينة المنورة ، ١٤٢٧هـ

٩٤ ص ، ١٧ × ٢٤

ردمك : ١-٢٥٧-٥٢-٩٩٦٠

١- التوكل ٢- الإيمان (الإسلام) أ- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٢٧/٨٥٠

رقم الإيداع : ١٤٢٧/٨٥٠

ردمك : ١-٢٥٧-٥٢-٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ

مطابع الرشيد ☎ ٨٣٦٨٣٨٢ فاكس: ٨٣٨٣٤٢٦

الناشر

مكتبة العلوم والحكم

هاتف :٨٢٥١٩٤٢

ص.ب: ٦٨٨ - المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية

" المقدّمة "

الحمد لله الذي كتب محبّته لعباده المتوكلين، والصلاة والسلام على خير من توكّل على ربّه تعالى فسمّاه المتوكّل[1] ونصره وأعزّه وجنده المؤمنين. وبعد :

حقيقة إيمانية قد تغيب عند البعض بسبب غلبة الأسباب وتحكّمها على طبيعة البشر، فتُنسى ويغفل عنها مع عظيم أهميتها ودورها في حياة المؤمن وصلته بربّه تعالى واطمئنانه وسكينته وراحة باله ويقينه وثقته بخالقه -عزّوجلّ- وبما يقدّره مما يكون له عظيم الأثر في بلوغه درجات الرضا والمحبة والتسليم، تلكم الحقيقة الإيمانية هي التوكّل على الله تعالى، فرأيت أنّه من الجدير بي أن يكون لي وقفة مع هذه الحقيقة في كتاب الله تعالى أطّلع من خلالها على ما حواه كلام الحقّ سبحانه من إظهار أهميّة التوكّل على الله تعالى، وأساليب الحثّ عليه وبيان ثمراته وغاياته ، ذلك أنّ القرآن الكريم عُني بهذه القضيّة الإيمانية أيّما عناية، حيث جاء ذكرها فيما يربو ويزيد عن خمسين آية من آياته الكريمة، فأخذت أتجوّل بنظري فيها فوجدت أنّ الله تبارك وتعالى تكلّم فيها من جوانب متعدّدة تؤكّد على مقدار منزلة التوكّل عنده سبحانه وعظم شأنه وضرورة لفت أنظار المؤمنين

---

(١) روى البخاري في صحيحه عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة. قال: أجل، والله إنّه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ.. الحديث. (فتح الباري حديث ٢١٢٥، ج٤ ص٣٤٣، كتاب البيوع (٥٠) باب كراهية السخب في الأسواق ، كتاب التفسير باب (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) بسورة الفتح، حديث ٤٨٣٨، ج٨ ص٥٨٥).

إليه، فما بين أمره –عزّوجلّ– لرسوله محمد ﷺ خاصة وعباده المؤمنين عامّة ، وذكره لأحوال المتوكلين من الأنبياء والمرسلين وعباده الصالحين ؛ وما بين ثنائه سبحانه وتعالى على المتوكّلين وذكر أجرهم وثوابهم العظيم؛ وما بين ذكر ثمراته وصلته بين الإيمان والأعمال الصالحة والصفات القلبية الأخرى كالصبر والمحبة والرضا واليقين بالله.. ولمّا كان الإلمام بهذه الجوانب المتعدّدة يحتاج إلى أكثر من بحث، فقد اخترت من بينها المواضع التي أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ فيها بالتوكّل عليه؛ ذلك أنّ التوكّل على الله تعالى مأمور به ﷺ في كلّ حال من أحواله وهو خير من توكّل على ربّه فكفاه، ولكن أمره به خاصّة في هذه المواضع والأحوال دالٌ على أهميته وتأكيده حينها ، ودالٌ –أيضاً– على تنبيه أمّته من بعده – وهو قدوتهم – في تأكيد التوكّل والعناية بتجريده لله تعالى فيما يكون من مواطن مشابهة وأحوال أُمِر فيها به ﷺ.

- هذا ومن بعد التتبع لتلك المواضع الكريمة وجدتها تسعة مواضع في ثمان سور، ومن ثمّ أفردت كلّ موضع بدراسة مستقلّة وجعلت له عنواناً يتناسب والحال التي ذكرت بشأنه. ورتبت هذه المواضع حسب ترتيب سورها في المصحف الشريف عبر ثمانية فصول وهي ما يلي:

الفصل الأول: " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد العزم حال الشورى " – في آية سورة آل عمران – .

الفصل الثاني: " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد أمره بالإعراض عن المنافقين " – في آية سورة النساء – .

الفصل الثالث: " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه حال عقده السلم مع المشركين" – في آية سورة الأنفال – .

الفصل الرابع : " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد الأمر بعبادته في خاتمة سورة هود ".

الفصل الخامس: " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد أمره بالاستغناء عن المشركين" – في آية سورة الفرقان – .

الفصل السادس : " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه حال معصية عشيرته الأقربين بعد إنذارهم " – في آية سورة الشعراء – .

الفصل السابع : " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه في معرض إخباره بقضائه بين المختلفين بشأن القرآن الكريم" – في آية سورة النمل– .

الفصل الثامن : " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد نهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين" – في سورة الأحزاب – .

هذا وقد مهدت لهذا البحث بتمهيد في تعريف التوكّل وكلمات قيّمة تبيّن أهمية قدره وشأنه وعظم منزلته.

ومن بعد ختمته بخاتمة ذكرت فيها أهمّ النتائج والمقترحات.

أمّا منهجي في بيان هذه المواضع فإني أذكر مناسبة أمر الله تعالى رسوله ﷺ في موضعه بين الآيات وغايته، وهذا يلزمني أن أبيّن ما قبل الموضع وما بعده –غالباً– لكشف وجه الصلة والمناسبة ، وأذكر من كلام المفسرين ما أراه مناسباً وراجحاً وقريباً من المعنى الظاهر دون اللجوء إلى مناسبات بعيدة في التأويل ومتكلّفة.

كما أني أعمد إلى ذكر بعض الفوائد واللطائف حول الآيات التي أتناولها بالبيان، والتي أرى من المناسب ذكرها لما فيها من زيادة إيضاح أو تأكيد لمعنى أو كشف لسرٍّ بلاغي أو لغويّ يبيّن جمال النصّ القرآني الكريم.

ثم إني أتعرّض لذكر القراءات المتواترة وتوجيهها إن وجدت، والتي من شأنها إضافة معنى إلى الآية المطلوب بيانها أو تأكيده.

هذا وأسأل الله تعالى أن يتقبّل مني بحثي هذا ويجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه، وأن يغفر لي ما كان فيه من خطأ أو نسيان إنَّه وليّ ذلك والقادر عليه. آمين

وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

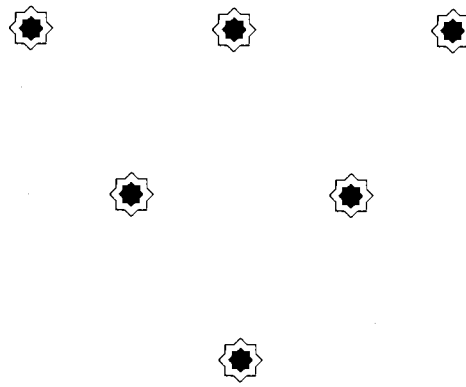

" التمهيد "

ـ تعـــريف وكلمـــــات ـ

- التوكّل في اللغة : إظهار العجز والاعتماد على الغير، والاســـم الـــتُّكْلان، واتّكلْت على فلان في أمري إذا اعتمدت عليه فيه. وأصله أوْتكَلْت ، قُلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ثم أبدلت منها التاء فأدغمت في تاء الافتعـــال. ووكيل الرجل: الذي يقوم بأمره ، سمِّي وكيلاً لأنّ موكِّله قد وكـــل إليـــه القيام بأمره فهو موكول إليه الأمر ، والاسم الوِكالة والوَكالة .
- وفي أسماء الله تعالى الوكيل أي هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد وأمـــورهم . والمتوكل على الله هو الذي يعلم أنّ الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ولا يتوكّل على غيره(١). وعلى ما سبق فقد تشابهت تعريفات أهل العلـــم للتوكّل على الله تعالى ، وقد أجاد الشيخ عبد الرحمن السعدي في صـــياغة تعريف جمع به خلاصة تعريفات أهل العلم إذ قال : " التوكّل على الله هـــو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضارّ مع ثقته به وحسن ظنّه بحصول مطلوبه"(٢).

– ولابن قيّم الجوزية كلمات رائعة تبيّن عِظم قدر التوكّل وأهميته وجليل ثمراته وغاياته اخترت منها ما يأتي:

قال رحمه الله : " التوكّل " نصف الدين ، والنصف الثاني " الإنابة " ، فإنّ الدين استعانة وعبادة، فالتوكّل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة(٣) .

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور ج١١ ص٧٣٤-٧٣٥-٧٣٦ .

(٢) تفسير السعدي: ج٥ ص٥٥٤ وانظر : تفسير ابن جزي ص٩٩؛ تفـــسير القـــرطبي ج٤ ص٢٥٣ ؛ التحرير والتنوير ج٤ ص١٥١ .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم : ج٢ ص٨٥ .

- وقال في درجاته ومراتبه : " فأفضل التوكّل : التوكّل في الواجب - أعني واجب الحقّ ، وواجب الخلق، وواجب النفس ، وأوسعه وأنفعه: التوكّل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكّل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكّل ورثتهم" (١).

- وفي علاقة صحة التوكّل على الله بتوحيده يقول: " فإنّه لا يستقيم توكّل العبد حتى يصحّ له توحيده؛ بل حقيقة التوكّل : توحيد القلب ، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكّله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحّة التوكّل، فإنّ العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكّله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة" (٢).

- وحول درجة التفويض الدالّة على صدق التوكّل يقول رحمه الله تعالى عنه : " وهو روح التوكّل ولبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلّها إلى الله ، وإنزالها به طلباً واختياراً لا كرهاً واضطراراً ؛ بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كلّ أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته وتدبيره له". (٣).

- وفي دور حسن الظنّ بالله وضرورته في التوكّل قال رحمه الله : " فعلى قدر حسن ظنّك بربّك ورجائك له يكون توكلك عليه "(٤).

---

(١)مدارج السالكين لابن القيم : ج٢ ص ٨٥ .

(٢) المرجع السابق : ج٢ ص ٩٠ .

(٣) المرجع السابق : ج٢ ص ٩١ .

(٤) المرجع السابق : ج٢ ص ٩١ .

- وعن أعظم وأجلّ ثمرات التوكل وهي الرضا يقول: " وهي ثمرة التوكّل ، ومن فسّر التوكّل بها فإنّما فسّره بأجلّ ثمراته وأعظم فوائده ، فإنّه إذا توكّل حقّ التوكّل رضي بما يفعله وكيله" (١).

- وأختم هذه الكلمات القيّمة لابن القيّم بما تكلّم به عن تعلّق التوكّل بأسماء الله الحسنى وصفاته، وهو أمرٌ عظيم يدلّ على رفعة مقام التوكّل على الله وشرف المتوكّلين وعلوّ منزلتهم عند ربهم تعالى وذلك قوله : " فإنّ له تعلّقاً خاصاً بعامّة أسماء الأفعال ، وأسماء الصفات ، فله تعلّق باسم (الغفار، والتوّاب، والعفوّ ، والرؤوف، والرحيم) ، وتعلّق باسم (الفتاح ، الوهّاب، والرزاق ، والمعطي، والمحسن) وتعلّق باسم (المعزّ ، المذلّ ، الحافظ، الرافع، المانع) من جهة توكّله عليه في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر، وتعلّق بأسماء (القدرة ، والإرادة) ، وله تعلّق عام بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسره من فسّره من الأئمة بأنّه المعرفة بالله، وإنّما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصحّ له مقام التوكّل، وكلّما كان بالله أعرف كان توكّله عليه أقوى" (٢) .

هذا ما أحببت أن أذكره من كلمات أُمهِّد بها بياناً لأهمية التوكّل وعظيم قدره وجليل ثمراته. والله أسأل التوفيق والسداد وحقّ التوكل عليه.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم : ج٢ ص ٩١ .

(٢) المرجع السابق : ج٢ ص ٩٤ .

" الفصل الأول "

" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد العزم حال الشورى" - في آية سورة آل عمران -

قال الله تعالى : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إنّ الله يحب المتوكلين)[1].

تقديم :

يجيء أمر الله – تعالى – لرسوله ﷺ بالتوكّل عليه – ههنا– في ختام آية كريمة من آيات سورة آل عمران التي يتحدّث سبحانه فيها عن أحداث حصلت في غزوة أحد، ومن تلكم الأحداث ما كان من موقف بعض الصحابة رضي الله عنهم الذين عصوا أمر رسول الله ﷺ وتركوا مواقعهم التي كانت تحمي ظهر جيش المسلمين، وهم الرُّماة، ذلك أنّهم استعجلوا في النزول عن الجبل طلباً للغنائم ؛ ممّا أدّى إلى تغيّر سير المعركة وتغلّب المشركين ولحوق الأذى بالرسول ﷺ ، وكان من بعد ذلك ما أخبر الله تعالى عنه من شأنه ﷺ مع هذه الفئة من الصحابة في لينه وحسن معاملته لهم ومخاطبته إياهم ورحمته بهم ؛ حيث إنه صبر وتجلّد ولم يعنّفهم بعتاب ولا توبيخ، فجاءت هذه الآية الكريمة – التي يأمر الله تعالى فيها نبيه ﷺ بالتوكل عليه في ختامها – مبيّنة فضله سبحانه وامتنانه على رسوله ﷺ والمؤمنين بما وهبه من رحمته[2] (فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت

---

(١) سورة آل عمران : الآية (١٥٩) .

(٢) انظر: تفسير البغوي ج١ ص ٣٦٥؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٩ ص٦٠-٦١؛ نظم الدرر للبقاعي ج٢ ص١٧٣؛ تفسير أبي السعود ج٢ ص١٠٥؛ تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج٤ ص١٩٨؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج٤ ص١٤٤.

فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك..) الآية[1] .

وسأتناول بيان هذه الآية الكريمة بما جاء فيها من امتنان الله تعالى على رسوله ﷺ والمؤمنين؛ وبما حوته من إرشادات وتوجيهات إلهية؛ وبما ختمت به من الأمر بالتوكّل عليه سبحانه، وذلك عبر المباحث الثلاثة الآتية، والله أسأل التوفيق والسداد .

المبحث الأول : خطاب الله تعالى ورسوله ﷺ بالامتنان عليه وعلى المؤمنين

يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ مادحاً وممتنّاً عليه وعلى صحابته – رضي الله عنهم – برحمته التي جعلها في قلبه إذ قال سبحانه بداية الآية: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) ، والفاء في قوله (فبما) للتفريع والترتيب على ما اشتمل عليه الكلام السابق الذي حُكي فيه مخالفة المؤمنين ومضمونه الذي ينبئ عن استحقاقهم اللائمة والتعنيف والعتب، وهو ما جاء في أوّله قوله تعالى (إنّ الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إنّ الله غفور حليم)[2]، والباء للمصاحبة متعلّقة بـ (لنت لهم) أي لنت لهم مع رحمة الله تعالى وبسبب الرحمة التي جعلها في قلبك تجاههم، وهي ربطه على جأشه وتخصيصه بمكارم الأخلاق ، هذا مع ما في هذا اللّين التي صاحبته هذه الرحمة من عدم التفريط معه لشيء من مصالحهم ، ولا مجاراة لهم في التساهل في أمر الدين والشَّرع . ولمّا بيّن سبحانه وتعالى سبب هذا اللين أوضح ثمرته ونتيجته بذكر ما في ضدّه من الضرر فقال : (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) أي

---

(١) سورة آل عمران : الآية (١٥٩) .

(٢) سورة آل عمران : الآية (١٥٥) .

لو كنت سيء الخلق جافي الطبع قاسي القلب قليل التسامح لتفرّقوا من عندك ولم يسكنوا إليك؛ ولتركوك وما جئت به وكان ذلك سبيلاً لتردّي أحوالهم في الهدى والخير والقيام بأمر الدين وشأنه في أنفسهم ومجتمعهم[1] .

وبهذا اكتمل الامتنان منه – عزّوجلّ– على نبيه ﷺ بهذه الرحمة، وتضمّن هذا الامتنان – أيضاً – امتناناً على صحبه رضي الله عنهم، كيف وقد جعله تعالى رحمة في ذاته للعالمين إذ قال سبحانه (وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين)[2]. وشبيه بهذه الآية قوله تعالى ممتناً على المؤمنين (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) [3].

فوائد ولطائف :

الأولى : إنّ المقصود من بعثة نبينا محمد ﷺ وإخوانه من الأنبياء والمرسلين هو التبليغ لتكاليف الله تعالى إلى عباده (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته..) الآية[4] ؛ وإنّ هذا المقصود لايحصل ولايتمّ إلاّ إذا انساقت نفوس العباد تجاه رسولهم ومالت قلوبهم إليه واجتمعت عليه؛ وهذا الانجذاب والميل والانسياق لايكون ولايتحقق إلا إذا كان الرسول

---

(١) انظر: تفسير الطبري ج٤ ص١٠٠ ؛ تفسير البغوي ج١ ص٣٦٥؛ تفسير الماوردي ج١ ص٣٤٩؛ تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٩؛ تفسير الثعالبي ج١ ص٣٢٦؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٩ ص٦٤؛ تفسير أبي السعود ج٢ ص١٠٥؛ نظم الدرر للبقاعي ج٢ ص١٧٣؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص٥٠؛ تفسير المنار ج٤ ص١٩٨-١٩٩؛ محاسن التأويل للقاسمي ج٤ ص٢٧٦؛ التحرير والتنوير ج٤ ص١٤٤؛ تفسير السعدي ج١ ص ٤٤٤.

(٢) سورة الأنبياء : الآية (١٠٧) .

(٣) سورة التوبة : الآية (١٢٨) .

(٤) سورة المائدة : الآية (٦٧) .

رحيماً رؤوفاً ودوداً كريم النفس سمح الفؤاد ليّن الجانب، يتجاوز عن سيئات وهفوات وزلّات مدعوّيه، بل يخصّهم بمزيد الإحسان والعفو والبرّ والشفقة، إذ الناس بطبيعتهم وجبلّتهم محتاجون إلى كنف رحيم يأوون إليه؛ ورعاية فائقة وشفقة غامرة وبشاشة سمحة، وإلى ودّ يسعهم وحلم لايضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا ينتظر منهم عطاءاً ، يحمل همومهم ولا يعنيهم بهمّه... ومن أجل هذا كلّه ونحوه من الأخلاق العالية والصفات الراقية كان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هم أولى الناس بها وأحقّهم بتمثّلها .. ولا ريب أنّ في هذا درساً عظيماً وعبرة بالغة لكل داعية إلى الله تعالى مبلّغ عن الرسول ﷺ أن يقتدي به ويترسّم خطاه وهداه في خلقه الكريم ومعاملته الحانية لمن حوله من أصحابه رضي الله عنهم وإن صدرت منهم زلّات وهفوات حتى يهفو الناس إلى دين الله ويفيئون إلى شرعه ويأنسون بطاعته وهديه .. (١)

الثانية : التنوين في قوله (فبما رحمةٍ) يفيد التفخيم والتعظيم لهذه الرحمة(٢) .

الثالثة : إنّ في تقديم المجرور بقوله (فبما رحمة من الله لنت لهم) إفادة للحصر الإضافي، أي برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم ، وهذا يفيد التعريض بأنّ أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم ولكنّ الله ألان خلق رسوله ﷺ رحمة بهم . ثمّ إنّ الإتيان بـ (ما) بعد باء الجر لتأكيد الجملة بما فيها من القصر بما يتعيّن بها كون التقديم للحصر لا لمجرد الاهتمام(٣).

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٩ ص٦٤؛ تفسير السعدي ج١ ص٤٤٤.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ج٢ ص ١٠٥؛ محاسن التأويل للقاسمي ج٤ ص٢٦٧.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ج٢ ص١٠٥؛ التحرير والتنوير ج٤ ص١٤٤.

هذا وقد أجاز الفخر الرازي أن تكون (ما) ههنا استفهاماً للتعجب تقديره : فبأي رحمة من الله لنت لهم ؟! وعلّل ذلك بأنّه لما كانت جنايتهم عظيمة والنبي ﷺ لم يظهر لهم تغليظاً البتة في القول؛ ولا خشونة في الكلام عُلِم أنّ هذا لا يكون إلا بتأييد ربّاني وتسديد إلهي ، فكان ذلك موضع التعجب من كمال ذلك التأييد والتسديد للنبي ﷺ [1] ، وأقول : هذا الذي أجازه الرازي لايمنعه مانع من نصٍّ أو سياق؛ بل وفيه إضافة لطيفة تؤكّد معنى تفخيم وتعظيم شأن هذه الرحمة من الله تعالى لنبيه ﷺ التي كان بسببها خير عظيم له ولأمته عليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام.

الرابعة : لابن عاشور ملحوظة لطيفة حول دلالة فعل المضيّ (لنت) حيث قال: " دلّ فعل المضيّ (لنت) على أنّ ذلك وصف تقرّر وعُرِف من خلقه ﷺ وأنّ فطرته على ذلك برحمة من الله إذ خلقه كذلك، فخلقه ﷺ مناسب لتحقيق حصول مراد الله من إرساله "[2].

الخامسة : ذكر الماوردي أنّ الجمع بين الصفتين في قوله تعالى : (ولو كنت فظاً غليظ القلب) وهما بمعنى واحد إنّما هو للتأكيد[3]. أقول : إنّ بين الوصفين (فظاً – غليظ القلب) فرق دقيق؛ وإن كان هناك تقاربٌ بينهما، وذلك ما أشار إليه الفخر الرازي وفطن له في قوله أنّ" الفظّ الذي يكون سيء الخلق وغليظ القلب هو الذي لا يتأثر قلبه عن شيء؛ فقد لايكون الإنسان سيء الخلق ولا يؤذي أحداً ولكنّه لايرقّ لهم ولا يرحمهم ، فظهر الفرق من هذا

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٩ ص ٦٢-٦٣.

(٢) التحرير والتنوير : ج٤ ص ١٤٥ .

(٣) النكت والعيون للماوردي : ج١ ص٣٤٩.

الوجه" [1]. وبهذا الفرق يتّضح أنّ كلا الوصفين مرادان في نفيهما عن رسول الله ﷺ ؛ والتأسيس – كما هو معلوم – أولى من التأكيد إن كان هناك مسوّغ له. والله أعلم.

المبحث الثاني: مناسبة الأمر بالتوكّل في هذا المقام .

– وبعد أن امتنّ الله سبحانه على رسوله ﷺ بما جعله من الرحمة في نفسه والتي أثمرت اللين وحسن الخلق والشفقة أمره بثلاثة أوامر في شأنه تجاه أصحابه رضي الله عنهم مرتّبة على ما ذكره من منّته عليه فقال له: (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)، فالفاء في قوله (فاعف..) للترتيب على ما قبلها من لينه ﷺ ، أي إذا كان الأمر والحال هو ذلك ممّا أوتيته من اللين وحسن الخلق فاعف عنهم فيما يتعلّق بحقوقك واستغفر لهم الله فيما يتعلّق بحقوقه عزّوجلّ، وذلك إتماماً للشفقة عليهم وإكمالاً لإحسانه بهم وتحقيقاً للينه وعطفه، ومن بعدُ أمره كذلك بالاستمرار في مشاورتهم لئلا يكون خطؤهم السابق في الرأي وتضييع مراكزهم موجباً لترك مشاورتهم فيفوت ما فيها من المنافع في ذاتها وفيما تثمره من التآلف واجتماع الكلمة وغير ذلك؛ فإنّ الشورى مبدأ شرعي لايجوز تركه بسبب أخطاء ارتكبت من أهلها أو بعضهم؛ فهذا هو طبع البشر وشأنهم، كيف وهم قد اختارهم سبحانه صحباً لنبيه ﷺ وقد عفا عنهم وأمره بالعفو عنهم[2] . وفي هذا قال ابن عاشور: " أي

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٩ ص ٦٣-٦٤ .

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ج٢ ص١٠٥؛ تفسير ابن جزي ص ٩٨؛ نظم الدرر للبقاعي ج٤ ص١٧٣-١٧٤؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص٥٠؛ تفسير الآلوسي ج٤ ص١٠٦؛ محاسن التأويل للقاسمي ج٤ ص٢٧٦؛ تفسير السعدي ج١ ص٤٤٤؛ التحرير والتنوير ج٤ ص١٤٦.

لايصدّك خطل رأيهم فيما بدا منهم يوم أحد عن أن تستعين برأيهم في مواقع أخرى، فإنّما كان ما حصل فلتة منهم وعثرة قد أقلتهم منها"[1].

- ولمّا أمر الله تعالى رسوله ﷺ بشورى أصحابه استظهاراً بآرائهم وتحقيقاً لهذا المبدأ الهامّ في حياة الأمة وتنبيهاً على ضرورته ووجوبه، ومن ثمَّ تطييباً لقلوبهم ورفعة لشأنهم ومنزلتهم وأنّهم باقون على الخير بفضل الله ومنّه وعفوه وكرمه .. لمّا أمره بذلك والحال أنّه يرى اختلافاً في آراء من يشورهم والمستشير ينظر في ذلك الاختلاف ويتخيّر؛ فإذا أرشده الله إلى ما شاء من الرأي واطمئنّ إليه وعقد العزم على إمضائه ووطّن نفسه للقيام به وأنفذه[2]؛ حين ذلك أمره سبحانه بالتوكّل عليه (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إنّ الله يحب المتوكلين). وعلى هذا فإنّ حكمة أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتوكل عليه في هذا المقام بعد بذل جهده بالشورى، ذلك أنّه لمّا أُمِر ﷺ بالشورى وقام بأمر الله من بعدُ وبذل جهده في طلب الآراء وقلّب وجوهها واختار ما رأى أنّه أصوبها وأحسنها وعقد عزمه عليه واطمأنّ قلبه إليه وجاء دور التنفيذ أُمِر حينها بالتوكّل عليه سبحانه والاستعانة به لئلا ينصرف اعتماده على ما بذله من أسباب وما توصّل إليه من آراء ويعوّل قلبه على ذلك وعلى من أخذ برأيه ومشورته؛ فإنّ الله تعالى هو خالق الأسباب ومصرّف الأمور ومقدّرها ، وهو الذي بيده عواقبها وخواتمها، وهو أيضاً العليم بما هو

---

(١) التحرير والتنوير: ج٤ ص١٤٧ .

(٢) انظر: تفسر الطبري ج٤ ص١٠١ ؛ تفسير البغوي ج١ ص٣٦٦؛ تفسير الماوردي ج١ ص٣٥٠؛ تفسير الثعالبي ج١ ص٣٢٧؛ نظم الدرر للبقاعي ج٤ ص١٧٤؛ تفسير أبي السعود ج٢ ص١٠٥؛ تفسير البيضاوي ج٢ص٥٠ .

أصلح وأرشد لعباده ولا يعلم ذلك سواه ؛ فهو الذي يجب أن يعتمد عليه ويستعان به ويطلب منه السداد والعصمة والتوفيق، فحقيق بهذا المقام أن ينبّه الله تعالى نبيه ﷺ بالالتفات إليه والاعتماد والتوكل عليه والاستعانة به بعد عزمه وحسمه ليصل الأمر كله لله وبقدره وقدرته ويدعه لمشيئته وإرادته ، ولا ريب أنّ هذا هو قمّة التوجّه والارتباط بالله تعالى، وإن كان قد بذل ما بذل من الجهد في طلب الآراء ومشورة الأصحاب فالأمر كلّه لله من قبل ومن بعد[1].

ولصاحب نظم الدرر كلام جميل في هذا المقام حيث قال " لّما أمر بالمشاورة والتي هي النظر في الأسباب أمر بالاعتصام بمسببها من غير التفات إليها ليكمل جهاد الإنسان بالملابسة ثم التجرّد على الله الذي له الأمر كلّه"[2]. وبمثل معناه قال السعدي: " أي اعتمد على حول الله وقوته متبرئاً من حولك وقوّتك"[3].

مطلب: وجه ختم الآية بقوله تعالى : (إن الله يحب المتوكلين)

- يختم الله –عزّ وجلّ – هذه الآية الكريمة بعد أمره لنبيه ﷺ بالتوكل عليه بالتأكيد لمحبته عباده المتوكلين عليه، وهو تذييل بمثابة التعليل للأمر بالتوكّل؛

---

(١) انظر: تفسير الطبري ج٤ ص١٠١؛ تفسير البغوي ج١ص٣٦٦؛ تفسير القرطبي ج٤ ص٢٥٢؛ تفسير الثعالبي ج١ ص٣٢٧؛ تفسير ابن جزي ص٩٨-٩٩؛ تفسير أبي السعود ج٢ ص١٠٥؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٧ ص٦٨؛ زاد المسير لابن الجوزي ج١ ص٤٨٩؛ نظم الدرر للبقاعي ج٢ ص١٧٤؛ نفسير البيضاوي ج٢ص٥٠ ؛ محاسن التأويل للقاسمي ج٤ ص٢٧٩؛ تفسير الآلوسي ج٤ ص١٠٧-١٠٨؛ تفسير السعدي ج١ ص٤٤٦؛ تفسير المنار ج٤ص٢٠٦.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج٢ ص١٧٤ .

(٣) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي: ج١ ص٤٤٦.

ولا ريب أنّ في هذا التعليل ترغيباً للنبي ﷺ وللمؤمنين جميعاً في التوكّل على الله تعالى والاستعانة به والإعراض عن كلّ ما سواه؛ فإن العبد المؤمن حريص على أن يكون ممّن يخصّه الله بمحبته والقرب منه.

ثمّ إنّ في هذا إشارة – أيضاً – إلى أنّه سبحانه وتعالى ما دام أنّه يحب من توكّل عليه فإنّه ناصرهم ومرشدهم ومسدّد رأيهم إلى ما فيه الخير والصلاح لهم وهو الذي كانوا ينشدونه من أمر الشورى.. وأنّه من أحبّه الله تعالى أيضاً فإنّه يعصمه من الغرور برأيه واجتهاده واستعداده وأن يركن إلى عدّته وعتاده وأن يتكبّر فينصرف عن النظر فيما يعرض له بعد ذلك فيضلّ ويردى، وهكذا فمنافع وفوائد محبة الله تعالى على عباده المتوكلين خاصة بهم ومتعدّية إلى مجتمعهم وأمتهم ولله الحمد والمنّة(١).

- هذا وقد تكلّم ابن عاشور عن سبب محبة الله تعالى لعباده المتوكلين فأجاد إذ قال : " لأنّ التوكّل علامة صدق الإيمان وفيه ملاحظة عظمة الله وقدرته واعتقاد الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه، وهذا أدب عظيم مع الخالق يدلّ على محبة العبد ربّه فلذلك أحبّه الله" (٢).

فوائد ولطائف :

الأولى: إنّ أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بشأن أصحابه في هذه الآية الكريمة جاء بترتيب وتدرّج بليغ، حيث إنّه أمره أولاً أن يعفو عنهم فيما يتعلّق بخاصّة نفسه، فإذا انتهوا إلى هذا المقام أمره أن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى لتنزاح

---

(١) انظر: تفسير الطبري ج٤ ص١٠١؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٩ ص٦٨؛ تفسير أبي السعود ج٢ ص١٠٥؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص٥٠؛ تفسير المنار ج٤ ص٢٠٦.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ج٤ ص١٥٢.

عنهم التبعتان، فإذا صاروا في هذه الدرجة والمنزلة خالصين من التبعتين مصفين منهما صاروا أهلاً للاستشارة فأمر حينها بمشاورتهم في الأمر(١).

الثانية : إنّ هذه الآية الكريمة هي من الآيات الدالّة على حقيقة التوكّل ومعناه في وجوب الأخذ بالأسباب وعدم إهمالها، وإلاّ لكان الأمر بالشورى منافياً للأمر بالتوكل، بل التوكّل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ؛ ولكنّه لا يعوّل بقلبه عليها بل يعوّل على قدرة الحقّ سبحانه وإرادته(٢).

الثالثة: دلّت الآية الكريمة إلى وجوب الشورى على كلّ صاحب ولاية عامّة أو خاصّة، حيث أمر بها النبي ﷺ وهو المؤيَّد بالوحي من الله تعالى ، فالشورى مبدأ أساسي في نظام الحكم في الإسلام ولايقوم إلا به، أمّا شكل الشورى والوسيلة التي تنجز بها فهي أمور وأحوال قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع المجتمعات والأمّة وملابسات حياتها . هذا وقد أمر الله تعالى بها ههنا، ومدح الأنصار بشأنها في آية سورة الشورى فقال : (وأمرهم شورى بينهم ..) الآية(٣)، واشترطها في أمر العائلة في آية سورة البقرة إذ قال : (فإن أراد فصالاً عن تراض منهما وتشاور..) الآية(٤)، فشرعها بهذه الآيات في مراتب المصالح كلّها وهي مصالح العائلة والقبيلة أو البلد والأمة والمجتمع، وهذا يدلّ أيضاً على تأكدّها وأهميّتها ، ولايخفى على أدنى صاحب علم ومعرفة فوائد الشورى في حياة الفرد والمجتمع والأمّة مما قد يطول المقام بذكرها وهي مبثوثة معلومة(٥).

---

(١) انظر: تفسير الثعالبي ج١ ص٣٢٦؛ تفسير الآلوسي ج٤ ص١٠٨.

(٢) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ج٤ ص٢٧٩؛ تفسير المنار ج٤ ص٢٠٨؛ التحرير والتنوير ج٤ ص١٥١.

(٣) سورة الشورى : الآية (٣٨).

(٤) سورة البقرة : الآية (٢٣٣).

(٥)انظر: تفسير السعدي ج٢ ص ٤٤٥؛ التحرير والتنوير ج٤ ص١٤٨ — ١٥٠.

الرابعة : إنّ قوله تعالى (فإذا عزمت فتوكّل على الله) يدلّ بصراحة على وجوب إمضاء العزيمة المستكملة لشروطها من الشورى وغيرها؛ ذلك أنّ نقضها يشير إلى ضعف في النفس ونقص في الثقة والخلق ، ويؤدي ذلك إلى انعدام الثقة من قبل الأتباع بمن اعتاده في قوله وعمله، كيف وإذا كان الناقض للعزيمة والٍ على أمر الأمّة فإنّه يؤدي ذلك إلى خطر عظيم وخلل كبير يودي بحياتها إلى الفوضى والاضطراب والتنازع.. فكان أمره تعالى في إمضاء العزيمة أمراً هاماً ضرورياً، وقد كان ﷺ هذا شأنه ، والشواهد في سيرته العطرة كثيرة ومعلومة(١).

الخامسة: إنّ على العبد المؤمن أن يحرص على التحلّي بالخلال التي يحبّها الله تعالى ويحب أهلها حتى ينال شرف وفضل محبته سبحانه ورضاه ويكون أهلاً لفردوسه وجنته ورؤيته ، ومن تلكم الخلال التي خصّ الله أهلها بمحبته التوكّل والذي أثبت الله محبته لأصحابه في ختام هذه الآية الكريمة. وفي مقابل ذلك ينبغي على المؤمن أن يبتعد ويتخلّى عن كلّ خصلة لايحبّها الله تعالى ولايحبّ أهلها كالاعتداء والظلم والخيانة والتكبّر والإفساد في الأرض وغيرها ممّا أخبر الله تعالى في كتابه أنّه لايحب أصحابها.

المبحث الثالث :مناسبة الأمر بالتوكّل في الآية للآية بعدها .

يجيء بعد خطاب الله عزوجلّ نبيّه في أمره بالتوكّل عليه وبيان محبته للمتوكلين قوله سبحانه مخاطباً المؤمنين عامّة (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٢) . وهو

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج٤ ص٢٥٢؛ تفسير المنار ج٤ ص٢٠٧.

(٢) سورة آل عمران : الآية (١٦٠).

استئناف مسوق بطريق التلوين في الخطاب لبيان وجوب التوكّل على الله تعالى بعد المشاورة والعزيمة المبنية على أخذ الأهبة والاستعداد بما يستطاع من حول وقوة ، وذلك بتقرير حقيقة التوكّل على الله وإقامتها على أصولها الثابتة للمؤمنين، حيث يقرّر الحقّ سبحانه بتوجيه الخطاب إليهم أنّ القوّة الحقيقية الفاعلة في نصرهم أو خذلانهم إنّما هي قوّته عزّوجلّ ، وعلى هذا فينبغي أن يكون التوجّه إليها والتوكّل عليها بعد اتخاذ أسباب النصر ودفع أسباب الهزيمة [1]. وتتميماً لهذا الخطاب التقريري للمؤمنين ختمه تعالى بنتيجته المطلوبة منهم وهي أمرهم بالتوكل عليه كما أمر رسوله ﷺ في الآية قبلها به. فقال : (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ، ولهذا قال ابن كثير رحمه الله تعالى: " أتبع أمره ﷺ بالتوكّل عليه بأمر الصحابة رضي الله عنهم "[2]. أي بمناسبة أمره صلى الله عليه وسلم بالتوكل أمروا هم بالتوكّل أيضاً حتى يتمّ التوافق بين القيادة المتمثّلة في النبي ﷺ وبين الصفّ وهم الصحابة في قوة الصلة بالله والتوكّل عليه سبحانه.

فائدتان :

الأولى: إنّ أمر الله تعالى المؤمنين بالتوكّل عليه بعد أمره للنبي ﷺ دالٌ على أهمية أمر التوكّل على الله تعالى وضرورة تربية الأمّة المؤمنة قيادة وصفاً على هذا المطلب الإيماني الهامّ، والذي لا يتحقّق الإيمان إلاّ به، ولايكمل اليقين ولاتتمّ الثقة بالله إلاّ بوجوده ، وهو علامة التأييد الإلهي لعباده وأمارة النصرة لأوليائه ،

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ج٤ ص٢٥٤؛ تفسير الآلوسي ج٤ ص١٠٨؛ تفسير المنار ج٤ص٢٠٧.

(٢) تفسير ابن كثير : ج١ ص٤٣٠ .

والسنّة النبوية المطهرة مليئة بمواقف المصطفى ﷺ في حسن توكّله على ربّه والتي كانت سبباً وسبيلاً لنصر الله وتأييده له ولأمّته .

الثانية : اجتمع في قول الله تعالى (وعلى فليتوكّل المؤمنون) عدّة مؤكّدات للأمر بالتوكّل في هذا المقام (إحداها) تقديم الجار والمجرور الدالّ على الحصر وقصر التوكّل على الله تعالى، أي على الله توكلوا ولا تتوكلوا على غيره البتة؛ لأنّ النصر بيده وهو الموفّق لأسبابه . و (ثانيها) لام الأمر في قوله (فليتوكل). و (ثالثها) وصف الإيمان للمأمورين به، أي ما دام أنّهم مؤمنون فيلزم منهم أن يتوكّلوا على ربّهم سبحانه وجدير بهم ذلك حتى يكونوا بحق أهلاً لهذا الإيمان.

وبهاتين الفائدتين يتمّ الكلام حول هذا الموضع الكريم من مواضع أمر الله نبيّه ﷺ بالتوكل عليه. ولله الحمد والمنّة .

" الفصل الثاني "

" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد أمره بالإعراض عن المنافقين " - في آية سورة النساء -

قال الله تعالى : (ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً)[1].

المبحث الأول: مناسبة الأمر بالتوكّل في هذا المقام .

- يخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن حال من أحوال المنافقين بالمدينة تجاه رسول الله ﷺ وشرعه ودينه، ذلك أنّهم لمرض أنفسهم وجبنها وضعفها لايُعرضون أمامه جهراً؛ بل يظهرون الطاعة والموافقة له، فإذا أمرهم بأمر أو نهاهم عن شيء يقولون : طاعة[2]، أي أمرنا وشأننا طاعة، فهي كلمة يقولونها له ﷺ ينبؤونه بها عن امتثالهم لأمره ونهيه وعدم عصيانهم له البتة؛ وهم بذلك يخادعونه وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون، حيث إنّهم إذا خرجوا من عنده وتواروا عنه استسروا فيما بينهم وأضمروا خلاف ما أظهروه له، وذلك هو قوله تعالى عنهم (فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول)، ومن بعد بيان حالهم هذا من النفاق والمخادعة أخذ الحق سبحانه في تهديدهم وتحذيرهم بقوله (والله يكتب ما يبيتون) ، فهو سبحانه مطّلع على ما يسرّونه ويضمرونه فيما بينهم

---

(١) سورة النساء : الآية (٨١) .

(٢) الرفع لهذه الكلمة على أنّها خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير: أمرنا وشأننا طاعة . (انظر: فتح القدير للشوكاني ج١ ص٥٨٠؛ التحرير والتنوير ج٥ ص١٣٦).

ولاتخفى عليه خافية فيكتب عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الموكلين بالعباد، فيثبته في صحائفهم ليجازيهم عليه؛ أو فيما يوحيه إلى نبيّه ﷺ فيطلعه على أسرارهم ويفضحهم ، وكلا الأمرين كائن وواقع من قِبَل الحقّ سبحانه وتعالى . فعلى القصد الأوّل يكون التهديد والوعيد منه سبحانه للمنافقين، وعلى القصد الثاني يكون منه التحذير لهم ، وبهذا يجتمع التهديد والتحذير – كما ذكرت ذلك آنفاً – في هذا القول من الله تعالى[1] .

- ولمّا تسبّب عن قوله تعالى هذا كفايته وتثبيته سبحانه لنبيّه ﷺ بتولي أمر هؤلاء المنافقين بالمؤاخذة والمجَازاة في الآخرة وكشف حالهم وفضحهم وعصمته منهم في الدنيا أمره عزّوجلّ بأمرين : (أولهما) الإعراض عنهم ، وذلك بأن لايعاقبهم أو يجازيهم أو ينتقم منهم بما أسرّوا ولم يظهروا؛ بل عليه أن لا يبال بهم وبما صنعوا وأن يتجاف عنهم فإنهم لايضرّون إلاأنفسهم . و (ثانيهما) التوكّل عليه سبحانه ؛ ذلك أنّه لمّا أمره بالإعراض عنهم أتبعه بالأمر أن يتخذ الله وكيلاً يكل إليه جزاءهم ويفوّض إليه أمرهم؛ فإنّه عزّوجلّ هو القادر على نصره على عدوّه وإقامة شرعه، وهو الذي لا يعجزه شيء في الانتقام من أعدائه ودفع كلّ أذى قد يقصدونه به ﷺ ويمكرون به ضدّه. وبهذا تتحقق المناسبة في هذا المقام الكريم لأمره تعالى نبيّه ﷺ بالتوكّل عليه حال ذكر أحوال المنافقين

---

(١) انظر: تفسير الطبري ج٥ ص١١٢-١١٣؛ تفسير ابن كثير ج١ ص٥٤١؛ البحر المحيط لأبي حيان ج٣ص٣٠٤؛ تفسير القرطبي ج٥ ص٢٨٨؛ زاد المسير لابن الجوزي ج٢ص١٤٣؛ تفسير الفخر الرازي ج١٠ص١٩٤؛ تفسير أبي السعود ج٢ص٢٠٧؛ تفسير الخازن ج١ص٥٦٣؛ تفسير الآلوسي ج٥ ص٩١-٩٢؛ تفسير المنار ج٥ ص٢٨٦؛ فتح القدير للشوكاني ج١ ص٥٨٠؛ تفسير السعدي ج٢ ص١١١؛ التحرير والتنوير ج٥ ص١٣٦.

معه ﷺ من المخادعة والمظاهرة عليه والكيد به ومن ثمّ أمره بالإعراض عنهم؛ فإن الله كافيه شرّهم ومنتقم له منهم ومظهره عليهم[1].

- وتأكيداً لأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه في هذا المقام أتبعه سبحانه بالثناء على ذاته المعظّمة بقوله (وكفى بالله وكيلاً)، وهذا الثناء المؤكّد بمثابة العلّة للأمر بالتوكّل عليه سبحانه، أي توكّل على الله لأنّه هو سبحانه حسبك وكافيك وكافل أمرك، فعلمه محيط بأعمال خلقه ظاهرها وخفيّها وبما يستحقّون من الجزاء عليها، وقدرته لايعجزها شيء في إيقاع هذا الجزاء والعقاب ، فكفى به قائماً بما فوّض إليه من التدبير لايضارّ من كان وكيله ولاينال تآمر ولا تبييت ولا مكيدة ، وهو المعين والناصر والوليّ الذي لا يضيّع من تولاّه واعتصم به ولاذ بحماه[2].

فوائد ولطائف :

الأولى : في إسناد فعل (بيّت) إلى طائفة من المنافقين بقوله عزّوجلّ (فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول) لبيان أنّ هذه الطائفة

---

(١) انظر: تفسير البغوي ج١ ص٤٥٥؛ تفسير البحر المحيط ج٣ص٣٠٤؛ تفسير القرطبي ج٥ص٢٩٠؛ تفسير الثعالبي ج١ص٣٩٤؛ تفسير ابن كثير ج١ص٥٤١؛ نظم الدرر للبقاعي ج٢ ص٢٨٦؛ تفسير أبي السعود ج٢ ص٢٠٧؛ تفسير الخازن ج١ ص٥٦٣؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص١٠٣؛ تفسير الآلوسي ج٥ ص٩٢؛ تفسير محاسن التأويل للقاسمي ج٥ ص٣٢١؛تفسير المنار ج٥ ص٢٨٦؛ تفسير السعدي ج٢ ص١١٢ ؛ التحرير والتنوير ج٥ ص١٣٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري ج٥ ص١١٣؛ تفسير البغوي ج١ ص٤٥٥؛ تفسير أبي السعود ج٢ ص٢٠٧؛ تفسير الخازن ج١ ص٥٦٣؛ تفسير الثعالبي ج١ ص٣٩٤؛ تفسير البيضاوي ج٢ ص١٠٣؛ تفسير الآلوسي ج٥ ص٩٢؛ تفسير المنار ج٥ ص٢٨٦؛ محاسن التأويل ج٥ ص٣٢١؛ تفسير السعدي ج٢ ص١١٢.

هم المتصدون له ﷺ بالذات وهم رؤساؤهم، وأمّا الباقون فهم أتباع لهم في ذلك، لا لأنّهم ثابتون وباقون على الطاعة[1].

الثانية: إنّ في طريقة التعامل مع المنافقين التي أرشد الله تعالى نبيه ﷺ إليها في أخذهم بظاهرهم لا بحقيقة نواياهم والإعراض والتغاضي عما يبدر منهم.. في ذلك حكمة إلهية ظهرت فيما بعد، حيث أفضت هذه الطريقة إلى إضعاف المنافقين وفتل قواهم ، وجعلت بقاياهم تتوارى ذلّة وهواناً وضعفاً وانحساراً، وكان ما كان من إظهار الله لنبيّه ﷺ وصحبه الكرام رضي الله عنهم ودولتهم عليهم وكشف أمرهم وفضح سرائرهم..

الثالثة: إنّ أمر الله تعالى نبيّه ﷺ في هذه الآية الكريمة بالتوكّل عليه في مواجهة المنافقين وهم فئة من فئات المجتمع المدنيّ آنذاك؛ وهو واقع يتكرّر في بعض الأزمنة والأمكنة عبر عمر الدعوة إلى الله تعالى؛ فما على الدعاة إلى الله المقتدين بالرسول ﷺ إلا أن يتبعوا هديه في عظيم توكّله واستعانته بربّه عزّوجلّ في شؤون دعوته عامة، وفي شؤون الفئات المناوئة والمعارضة له بصورة خاصة، ولايخفى ما في التوكّل على الله تعالى من التثبيت على طريق الحقّ مهما واجه الدعاة من صنوف الأذى والكيد والمكر والمخادعة؛ إذ إنّهم يستعينون ويتوكّلون على من بيده مقادير كلّ شيء وهو الحافظ لدعوته وجنده.. فلا جرم كان هذا درساً في الثبات على الحقّ والصبر على ما يلاقي في سبيله، وذلك بعمق الصلة بالله تعالى والتوكل عليه والاستعانة به.

الرابعة: إنّ في إظهار اسم الجلالة في موضع إضماره في قوله تعالى (وتوكّل على الله) إشعاراً بعلّة الحكم[2].

---

(١) انظر: تفسير الآلوسي ج٥ ص٩٢.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ج٢ ص٢٠٧ .

الخامسة: وفي إظهار اسم الجلالة مرّة أخرى في موضع إضماره بقوله تعالى (وكفى بالله وكيلاً) تعليلاً للحكم أيضاً بتعظيم الله تعالى وأمره؛ وللتنبيه على استقلال هذه الجملة الكريمة واستغنائها عمّا عداها من كلّ وجه[1].

المبحث الثاني: مناسبة الآية لما بعدها

- لمّا أُمِر الرسول ﷺ بالإعراض عن المنافقين والتوكّل على الله تعالى بسبب حال المنافقين من الشكّ والنفاق والكيد والخداع وهي الحال التي تنبئ عن اعتقادهم بأنّ الرسول ﷺ غير محقٍّ في ادّعاء الرسالة وليس بصادق، بل إنّه مفتر متخرِّص، فلا جرم حين ذلك أمرهم الله تعالى بأن ينظروا ويتفكروا في الدلائل الدّالة على صحّة نبوّته ﷺ وصدقه ، فقال تعالى : (أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) [2]، حيث إنّ القرآن الكريم هو أعظم الدلائل الدالّة على صحّة نبوّته ﷺ وصدقه وقوّة حجته[3]. ولايخفى أنّ هذا الأسلوب في الخطاب منهج قرآني فريد؛ حيث إنّه – عزّوجلّ– يثبِّت رسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين على طريق الحقّ بما يظهره من المؤيِّدات، وفي ذات الوقت يتبع ذلك بدعوة المعارضين للحقّ بالنظر والتدبّر في أصول الحقّ ومعجزاته ودلالاته. ولذلك – بلاشكّ– أثر في زيادة ثقة الرسول ﷺ بالمنهج الذي يحمله ويدعو إليه ممّا يزيد في قوّة توكّله على ربّه سبحانه ويقينه به وبنصره وتأييده.

وبهذه الكلمات يتمّ الحديث عن هذا الموضع الكريم من مواضع أمر الله تعالى لرسوله ﷺ بالتوكّل عليه. ولله الحمد والمنّة .

---

(١) انظر: المرجع السابق ج٢ ص٢٠٧ ؛ ج٧ ص١٠٨؛ تفسير الآلوسي ج٢١ ص١٤٤.

(٢) سورة النساء : الآية (٨٢).

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٠ ص١٩٦.

" الفصل الثالث "
" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه حال عقده السلم مع المشركين " – في آية سورة الأنفال –

–قال الله تعالى : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله إنّه هو السميع العليم)[1].

المبحث الأول: مناسبة الأمر بالتوكّل في هذا المقام .

هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال المدنيّة التي يبيّن الله تبارك وتعالى فيها سياسة أمّته المسلمة مع أعدائها.. هذه الآية الكريمة هي حلقة من حلقات أوجه التعامل والسياسة مع أعداء الإسلام الكفرة من مشركين وأهل كتاب[2]، فإنّه تعالى بيّن في الآيات قبلها ما يكون من شأن المؤمنين مع الكفرة حال وفائهم بالعهد وخيانتهم له؛ وكيف لهم أن يحلّوا العهد معهم إن خافوا خيانتهم، وكيف هي معاملتهم إذا ظفروا بالخائنين منهم، مع الأمر بالاستعداد لهم، وذلك ما جاء في قوله تعالى: (إنّ شرّ الدوابّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثمّ ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . فإمّا تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين . ولا يحسبنّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . وأعدّوا لهم

---

(١) سورة الأنفال : الآية (٦١) .

(٢) انظر: تفسير الطبري ج١٠ ص٢٤؛ تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٣٦؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٠ ص٦٠.

ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل . .)[1] الآية ، ثمّ انتقل الكلام من بعد إلى بيان أحكام السِّلم معهم إن طلبوا السلم والمهادنة وكفّوا عن الحرب؛ فأمر الله المؤمنين بأن لايأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سأله منهم، وخاطب الله رسوله ﷺ آمراً إيّاه بذلك بقوله (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله إنّه هو السميع العليم)[2]. أي إن مالوا[3]عن جانب الحرب إلى جانب الصلح والمهادنة ميل القاصد إليه خلافاً لما عُهد منهم حال قوّتهم فأجبهم إليه واقبله منهم؛ حيث إنّك أولى بالسلم منهم، ولعلّ في موافقتهم وإجابتهم تقريباً لهم إلى الإيمان بالله تعالى والتصديق برسوله ﷺ[4].

- هذا ولمّا أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإجابة الكفرة إلى السلم عطف عليه الأمر بالتوكّل عليه فقال : (وتوكّل على الله إنه هو السميع العليم)؛ وذلك لأنّ من شأن الكفرة وطبعهم مع رسول الله ﷺ والمؤمنين المكر والكيد والخديعة، فقد يظهرون لهم الميل والرغبة في السلم وهم يريدون غير ذلك ويبطنون خلافه من إرادة التقوّي والاستعداد لحربهم والغدر بهم ونقض العهد وترك الوفاء ، فلمّا كان حالهم ذلك أمر الله عزّوجلّ

---

(١) سورة الأنفال : الآيات من (٥٥) إلى (٦٠).

(٢) سورة الأنفال : الآية (٦١) .

(٣) الجنوح في اللغة : الميل ، وهو مشتق من جناح الطائر؛ لأنّ الطائر إذا أراد النزول مال بأحد جناحيه. (انظر : لسان العرب لابن منظور ج٢ ص٤٢٨؛ تفسير الآلوسي ج١٠ ص٢٧؛ فتح القدير ج٢ ص٣٤٢؛ التحرير والتنوير ج١٠ ص٥٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري ج١٠ ص٢٤؛ تفسير أبي السعود ج٤ ص٣٣؛ تفسير محاسن التأويل ج٨ ص٨٧؛ تفسير الآلوسي ج١٠ ص٢٧؛ تفسير المنار ج١٠ ص٦٩؛ تفسير السعدي ج٣ ص١٨٥؛ التحرير و التنوير ج١٠ ص٥٨.

نبيه ﷺ أن يتوكّل عليه تثبيتاً له ودفعاً لما قد يخالج قلبه وقلب أصحابه من خشية الغدر والمكر والكيد، وكأنّ الله سبحانه يقول له : توكّل عليّ ولاتبال بهم وبما قد يكون من غدرهم وكيدهم فإني كافٍ لمن توكّل عليّ وناصره ومؤيّده وعاصمه مما يسوؤه من مكر وكيد وأذى بل ومحيق المكر بأهله وجاعله سبباً في دمارهم وذهاب أمرهم وهلاكهم[1].

مطلب : وجه الحكمة في إتباع الأمر بالتوكّل بقوله تعالى (إنّه هو السميع العليم).

- تأكيداً وتعليلاً للأمر بالتوكّل؛ وبياناً للمعنى المراد منه وهو دفع الخشية من المشركين إن أرادوا الكيد بجنوحهم للسلم جاء عقبه قوله سبحانه (إنّه هو السميع العليم) ، أي توكّل على الله تعالى ولاتخش شيئاً مما قد يكون منهم من مكر أو خديعة أو كيد فإنّه هو – عزّوجلّ– السميع لمقالاتهم في خلواتهم من مقالات الخداع والكيد وهو العليم الذي يعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقون ويردّ كيدهم في نحرهم[2]. ولذلك قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: (إنّ الله الذي تتوكّل عليه سميع لما تقول أنت ومن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٣٦؛ البحر المحيط لأبي حيان ج٤ ص٥١٤؛ تفسير غرائب القرآن للنيسابوري ج١٠ ص٢٠؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٥ ص١٨٧-١٨٨؛ تفسير أبي السعود ج٤ ص٣٣؛ نظم الدرر للبقاعي ج٣ ص٢٣٧؛ تفسير البيضاوي ج٣ص٥٥؛ تفسير الآلوسي ج١٠ ص٢٧؛ تفسير المنار ج١٠ ص٦٩؛ محاسن التأويل للقاسمي ج٨ ص٨٧؛ فتح القدير للشوكاني ج٢ ص٣٤٢؛ التحرير والتنوير ج١٠ ص٥٨.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٥ ص١٨٧-١٨٨؛ تفسير أبي السعود ج٤ ص٣٣؛ تفسير البيضاوي ج٣ ص٥٥؛ تفسير الخازن ج٣ص٤٨ ؛ تفسير الآلوسي ج١ ص٢٧-٢٨؛ محاسن التأويل ج٨ ص٨٧؛ تفسير المنار ج١٠ ص٦٩؛ التحرير والتنوير ج١٠ ص٥٨.

تسالمه وتتاركه الحرب من أعداء الله وأعدائك عند عقد السلم بينك وبينه وبشرط كل فريق منكم على صاحبه من الشروط؛ والعليم بما يضمره كلّ فريق منكم في قلبه والمنطوي على خلافه لصاحبه"[1].

- ويدلّ على هذا الوجه أيضاً قول النيسابوري : " أي فوّض الأمر فيما عقدته معهم إلى الله ليكون عوناً لك على السلامة وينصرك عليهم إذا نقضوا العهد وعدلوا عن الوفاء كما كان من شأن قريظة والنضير"[2].

فوائد ولطائف :

الأولى : إنّ الله تعالى ناصر دينه ومعلي كلمته على أعدائه ، وهذا ما يلمسه المتأمِّل في أمر الله تعالى لنبيّه ﷺ بالتوكّل عليه حين إجابته لأعداء الدين إلى السلم، فإنّ هذا الدين دينُ الله تعالى؛ وما يصدر من المؤمنين من عهود مع أعدائهم دلّهم إليها الشرعُ الحنيف وأمرهم بها فإنّه سبحانه من بعد قيامهم بها وإعطائها هو الكافي لعباده المؤمنين المعاهدين وشؤونهم وحفظ دينهم ، وهو القادر على نصر جنده وهزم أعدائه لاطلاعه الكامل الذي لا تخفى عليه خافية.. ولذلك فإن المؤمن مكلّف أن يقوم بأمر الله تعالى على كل حال في حربه وسلمه؛ ويَكِلُ من بعدُ أمره إلى ربِّه العليم بكل شيء والمنتقم لأوليائه وشرعه والجبار القهّار الذي يقهر كلّ شيء ولايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.. وذلك هو الذي يسكب في قلوب المؤمنين الطمأنينة والثقة والسكينة ومن بعد فلايخشون شيئاً لأنّ الله هو حسبهم وكافيهم ومولاهم وهم أولياؤه المتوكلون عليه المفوِّضون أمرهم إليه ولن يخذلهم ولن يتركهم لعدوّه.

---

(١) تفسير الطبري : ج١٠ ص٢٥ .

(٢) تفسير غرائب القرآن للنيسابوري : ج١٠ ص٢٠ .

الثانية : السِّلْم بفتح السين وكسرها ضدّ الحرْب. وقد قرأ جمهور القرّاء بالفتح، وقرأه حمزة وأبو بكر عن عاصم وخلف بالكسر، وهما لغتان. واللفظ حقّه التذكير ؛ ولكنّه يؤنّث كما هو ههنا حملاً على ضدّه الحرب، وقد ورد مؤنّثاً في كلام العرب كثيراً[1].

الثالثة: اللام في قوله (للسلم) واقعة موقع (إلى) ؛ وذلك لتقوية التنبيه على أنّ ميلهم إلى السِّلم ميل حقّ؛ لأنّ حقّ (جنح) أن يُعدّى بـ (إلى) لأنّه بمعنى (مال) الذي يُعدّى بـ (إلى) ؛ فلا تكون تعديته باللام، إلا لغرض[2]. ولذلك قال صاحب نظم الدرر : " التعبير باللام دون (إلى) لايخلو من إيماء إلى التهالك على ذلك ليتحقق صدق الميل"[3].

الرابعة : جيء بفعل (فاجنح) في جانب الرسول ﷺ لموافقة قوله تعالى في شأن المشركين (وإن جنحوا) ، والمراد في جانبه أن يجيبهم إليه لا أنّه يصدر منه الميل المقصود كشأنهم[4] .

الخامسة : أفاد قوله تعالى (إنه هو السميع العليم) بما فيه من حرف التوكيد وضمير الوصل المتصل به في (إنّه) وضمير الفصل من بعده (هو) مع صيغتي المبالغة في (السميع) و (العليم) أفاد قصر معنى الكمال في السمع والعلم لله سبحانه وتعالى [5].كما أنّ في هذه الجملة الكريمة الخاتمة للآية تنبيهاً على

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور ج١٢ ص٢٩٣؛ حجة القراءات لابن زنجلة ص٣١٢؛ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ ص٢٢٧؛ التحرير والتنوير ج١٠ ص٥٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ج١٠ ص٥٨ .

(٣) نظم الدرر للبقاعي: ج٣ ص٢٣٧ .

(٤) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٠ ص٥٨ .

(٥) انظر: المرجع السابق ج١٠ ص٥٨ .

الزجر عن نقض الصلح لأنّه سبحانه عالم بما يضمره العباد وسامع لما يقولون[1].

المبحث الثاني: صلة الأمر بالتوكل بما بعده

زيادة في بيان المعنى المراد من أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتوكّل عليه في هذا المقام؛ وتأكيداً له وتأميناً للرسول ﷺ وزيادة في تثبيته وطمأنته صرّح عزّوجلّ بالاستهانة بكيد المشركين وخداعهم في حال جنوحهم للصلح رغبة منهم في الخيانة والغدر من استعداد لحرب المسلمين أو انتظار غرّة تمكّنهم منهم، من أجل ذلك قال سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ ومخبراً له بعد أمره بالتوكل (وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين. وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم . يا أيها النبيّ حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)[2].

– فهذه الآيات الثلاث مع ما ختمت به الآية السابقة من قوله تعالى (إنّه هو السميع العليم) هي مكمّلة لما يتطلبّه الأمر بالتوكّل من بيان معناه والتأكيد عليه ومن ثمّ تثبيته ﷺ وتأمينه وطمأنته بما حملته في طيّاتها من العبارات و الجمل المفيدة لذلك حال كون الكفرة أرادوا الخيانة والغدر بصلحهم مع الرسول ﷺ والمؤمنين. وأول تلك العبارات قوله تعالى (فإنّ حسبك الله) أي أنه عزّوجلّ كافيه أمرهم من كلّ وجه ودافع عنه ما يؤذيه من شرّهم، وهو القائم بمصالحه ومهمّاته وإنّما ضرر كيدهم عائد عليهم. وثانيها ما ذكره الله تعالى بعدها من تعليل هذه الكفاية الربّانية بقوله (هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين. وألّف بين قلوبهم ..) الآية ، أي فقد سبق لك من الله التأييد بنصره

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٥ ص١٨٧-١٨٨.

(٢) سورة الأنفال : الآيات (٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤).

وبالمؤمنين الذين ألّف بين قلوبهم فأصبحوا صفاً واحداً حولك يفدونك بأرواحهم ودمائهم وأموالهم[1]. وفي هذا قال صاحب محاسن التأويل : " ثمّ علّل كفايته بما أنعم عليه من تأييده بنصره وبالمؤمنين"[2]. وثالثها قوله تعالى (يا أيها النبيّ حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)، وقد قال القرطبي فيها: " ليس هذا تكريراً ، فإنّه قال فيما سبق (وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله) وهذه كفاية خاصة، وفي قوله (يا أيها النبي حسبك الله..) أراد التعميم ، أي حسبك الله في كلّ حال"[3].

فوائد ولطائف:

الأولى: ذهب الفخر الرازي إلى ملحظ لطيف في قوله تعالى : (وإن يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله ..) حيث ذكر أنّ فيه دلالة على حكم من أحكام الصلح مع المشركين وهو أنّهم إن صالحوا على سبيل المخادعة وجب قبول ذلك الصلح، لأنّ الحكم مبنيٌّ على الظاهر، وذلك لأنّ الصلح لايكون أقوى حالاً من الإيمان؛ فلما بني أمر الإيمان على الظاهر لا على الباطن فههنا أولى[4].

الثانية: في قوله تعالى : (هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين) أعيد حرف الجر بعد واو العطف في (بالمؤمنين) لدفع توهّم أن يكون معطوفاً على اسم الجلالة فيوهم أنّ المعنى: ونصر المؤمنين ؛ مع أنّ المقصود أنّ وجود المؤمنين تأييد من الله

---

(١) انظر: نظم الدرر للبقاعي ج٣ ص٢٣٧؛ فتح القدير للشوكاني ج٢ ص٣٤٢؛ تفسير المنار ج١٠ ص٧٠.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي : ج٨ ص٨٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج٨ ص٤٢.

(٤) انظر: التفسير الكبير ج١٥ ص١٨٨.

لرسوله ﷺ ؛ إذ وفّقهم لاتباعه فشرح صدره بمشاهدة نجاح دعوته وتزايد أمّته ولكون المؤمنين جيشاً ثابتي الجنان، فجُعِل المؤمنون بذاتهم تأييداً[1].

الثالثة: إنّ في ختم الآية الكريمة بقوله (إنّه عزيز حكيم) أي بذكر صفتي العزّة والحكمة لله تعالى؛ تعليلاً للكفاية من الله تعالى لرسوله ﷺ شرّ الأعداء وتأييده بنصره وبالمؤمنين ، فهو العزيز أي الغالب على أمره الذي لا يغلبه خداع المخادعين ولا كيد الكائدين ، وهو الحكيم في أفعاله كنصره الحقّ على الباطل؛ وفي أحكامه كتفضيله الجنوح للسلم إذا جنح لها العدوّ [2].

الرابعة: ولابن عاشور كلام حسن في موقع قوله تعالى : (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) بعد التي قبلها حيث ذكر أنّه لـمّا أخبر الله تعالى نبيّه ﷺ فيها بأنّه حسبه وكافيه؛ وبيّن ذلك بأنّه أيّده بنصره فيما مضى وبالمؤمنين؛ فقد صار للمؤمنين حظٌّ في كفاية الله تعالى لرسوله ﷺ ؛ فلا جرم أنتج ذلك أنّ حسبه الله والمؤمنون، فكانت هذه الآية كالنتيجة والفذلكة للجملة التي قبلها[3].

وبهذه الفوائد يتمّ الكلام حول هذا الموضع الكريم من مواضع أمر الله تعالى لرسوله ﷺ بالتوكّل عليه. ولله الحمد والمنّة .

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٠ ص٦٣ .

(٢) انظر: تفسير المنار ج١٠ ص٧٣ .

(٣) انظر: التحرير والتنوير ج١٠ ص٦٥.

" الفصل الرابع "

" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد الأمر بعبادته في خاتمة سورة هود "

قال الله تعالى : (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كلّه فاعبده وتوكّل عليه وما ربّك بغافل عمّا تعملون)[1].

مبحث : مناسبة الأمر بالتوكّل في هذا المقام .

- تجيء هذه الآية الكريمة التي يأمر الله تعالى فيها نبيّه محمداً ﷺ بالتوكّل عليه في خاتمة أربع آيات شكّلت بمجموعها ختاماً لسورة هود وهي قوله عزّوجلّ (وكلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنّا عاملون . وانتظروا إنّا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكّل عليه وما ربّك بغافلٍ عمّا تعملون) [2].

فهذه الآيات الكريمات بيّنت ما أفادت به هذه السورة الكريمة الرسول ﷺ في خاصة نفسه والمؤمنين من أنباء الرسل مع أقوامهم وقصصهم وحكمها وعبرها، وأمّا غير المؤمنين فإنّه يؤمر ﷺ فيها أن يبلّغهم كلمته الأخيرة إن لم يؤمنوا،

---

(١) سورة هود : الآية (١٢٣).

(٢) سورة هود : الآيات (١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢، ١٢٣).

وذلك بالتهديد والوعيد والإنذار بما ينتظرهم من عقاب الله تعالى في مفاصلة حاسمة لاتقبل مساومة أو مجاملة في أمر الدين والعقيدة[1] (وقلْ للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون. وانتظروا إنّا منتظرون)، ومن ثمّ يخبر الله تعالى رسوله ﷺ أنّ له ملك ما غاب عنه في السموات والأرض فلم يطّلع عليه ولم يعلمه، كلّ ذلك بيده ويعلمه لايخفى عليه منه شيء، فهو بهذا عالٌم سبحانه بما يعمله المشركون وما إليه مصير أمرهم من بقائهم على شركهم أو إقلاعهم عنه وتوبتهم، كما يخبر الله تعالى نبيّه ﷺ أنّ أمر العباد في دنياهم وآخرتهم يرجع إليه وحده فيجازيهم بأعمالهم، إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه عزّوجلّ، وهو بهذا قادر على أن ينتقم من أعدائه ويجازيهم بما يستحقونه بسبب إساءتهم وكفرهم وعداوتهم لرسوله ولدينه[2].

- هذا ولمّا كان الأمر كذلك وأنّ الله – سبحانه وتعالى – له غيب السموات والأرض وعلمه نافذ في جميع الأشياء خفيّها وجليّها وحاضرها ومعدومها وأنّه إليه يرجع الأمر كلّه، لمّا كان كذلك ناسب أن فُرِّع عليه أمر الله تعالى لنبيّه ﷺ بعبادته والتوكّل عليه، ذلك أنّه من كان كذلك كان مستحقاً للعبادة وحده دون غيره؛ وهو الحقيق بالتوكّل عليه في

---

(١) انظر: تفسير الخازن ج٣ص٢٥٩؛ تفسير المنار ج١٢ ص١٩٦؛ التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي ج١ ص٤٧١.

(٢) انظر: تفسير الطبري ج١٢ ص٨٩؛ تفسير البغوي ج٢ ص٤٠٧؛ الكشاف للزمخشري ج٢ ص٢٤٠؛ تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج٥ ص٢٧٥؛ تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٣؛ تفسير البيضاوي ج٣ ص١٢٥؛ حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص٤٣١؛ فتح القدير للشوكاني ج٢ ص٥٤٥؛ تفسير السعدي ج٣ ص٤٧٢.

كلّ مهمّ دون سواه، وهو الكافي لعبده في جميع أموره صغيرها وكبيرها، ومنها ما يكون في شأنه ﷺ مع المشركين أعداء الدين؛ فإنّه كافيه أمرهم وناصره ومؤيّده عليهم(١).

ويضاف إلى هذه المناسبة ما يكون من مناسبة الأمر بالعبادة والتوكّل على الله تعالى في هذا الشأن مع المشركين؛ إذ فيهما زوال همّه ﷺ وصلاح شأنه ووصوله إلى رضوان الله تعالى وتحقيق وعده له بالظفر والنصر(٢).

مطلب : وجه ختم الآية بقوله تعالى (وما ربّك بغافلٍ عمّا تعملون).

- يختم الله -عزّوجلّ- هذه الآية الكريمة بما هو نتيجة وتذييل لما تقدّم من إحاطة علمه سبحانه ورجوع الأمر كلّه إليه ومن الأمر بعبادته والتوكّل عليه عزّوجلّ؛ إذ بيّن أنّه ليس بغافلٍ وساهٍ عن عمل عامل من خير أو شر فيجري حكمه ويجزي كلّ أحد على حسب عمله وبما يستحقّ من ثواب أو عقاب.
- هذا وإنّ قوله (عما تعملون) على تغليب المخاطَب وهو النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم(٣)، وهذه قراءة نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب، وهي مناسبة لقوله تعالى (فاعبده وتوكّل

---

(١) انظر: تفسير الثعالبي ج٢ ص٢٢٤؛ تفسير أبي السعود ج٤ ص٢٤٩؛ تفسير الخازن ج٣ ص٢٦٠؛ تفسير الآلوسي ج١٢ ص١٦٧؛ حاشية الصاوي على الجلالين ج٢ ص٢٣٢؛ فتح القدير للشوكاني ج٢ ص٥٤٥؛ التفسير الواضح لحجازي ج١ ص٤٧١؛ التحرير والتنوير ج١٢ ص١٩٥.

(٢) انظر: تفسير الثعالبي ج٢ ص٢٢٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري ج١٢ ص٢٨٩؛ تفسير أبي السعود ج٤ ص٢٤٩؛ تفسير البيضاوي ج٣ ص١٢٥؛ فتح القدير ج٢ ص٥٤٥؛ تفسير السعدي ج٣ ص٤٧٢؛ التحرير والتنوير ج١٢ ص١٩٦.

عليه). وقد قرأ من عداهم (عمّا يعملون) بياء الغيبة، على أنّه يعود الضمير إلى الكفار المشركين الذين سبق إنذارهم وتهديدهم فيما قبل بقوله تعالى (وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم..) الآيات، وبهذه القراءة يُحمل النصّ الكريم على التسلية للنبيّ ﷺ بأنّه ليس بغافلٍ سبحانه عن عمل هؤلاء المشركين، بل هو محيط به لايعزب عنه شيء منه وهو لهم بالمرصاد؛ فلايحزنه إعراضهم وتكذيبهم بما جاء به من الهدى وإنّما عليه البلاغ والله عاصمه منهم ومظهر أمره. ولايخفى- أيضاً- أنّه ينتظم مع هذه التسلية للنبي ﷺ التهديد والوعيد للمشركين بعدم غفلته سبحانه عمّا يعملون فيجازيهم بما يستحقون من العقاب والعذاب في الدنيا والآخرة[1].

فوائد و لطائف :

الأولى: هذه الآية الكريمة الخاتمة لسورة هود جاءت في غاية التعظيم لله تعالى والمناسبة لأوّلها مع براعة ختمها فيما لايقادر قدره. أمّا في غاية تعظيمها لله تعالى فقد قال الثعالبي عنها أنّها : " آية تعظيم وانفراد بما لاحظّ لمخلوق فيه"[2]. وأمّا في مناسبتها لأوّل السورة فقد قال البقاعي : " ولمّا كانت العادة جارية بأنّ العالم قد يغفل نزّه عن ذلك سبحانه نفسه فقال مرغباً مرهّباً (وما ربّك بغافل عما تعلمون) أي المحسن إليك بما يعلمه بإحاطة علمه إحساناً، وأغرق في النفي فقال (وما ربّك بغافلٍ عما تعملون) ولا تهديد أبلغ من العلم،

---

(١) انظر: تفسير الطبري ج١٢ ص٨٩ ؛ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ ص٢٦٣؛ الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ج١ ص٥٣٨؛ حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٥٣؛ نظم الدرر للبقاعي ج٣ ص٥٩٢؛ التحرير والتنوير ج١٢ ص١٩٦.

(٢) تفسير الثعالبي ج٢ ص٢٢٣.

وهذا بعينه مضمون قوله تعالى (كتاب أحكمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيم خبير. ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير) [1]."[2] وأمّا في براعة ختمها للسورة فقد قال ابن عاشور أنّها " كلام جامع، وهو تذييل للسورة مؤذن بختامها ، فهو من براعة المقطع"[3].

الثانية : خصَّ الله تبارك وتعالى علمه الغيب مع كونه يعلم ما هو مشهود؛ لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره، فتخصيصه بالذكر مناسب لهذا المقام الكريم في تعظيم الحقّ سبحانه[4].

الثالثة: إنّ في تقديم المجرورين بقوله تعالى (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كلّه) إفادة للاختصاص ؛ مع التعريض بفساد آراء الذين عبدوا غير الله ؛ لأنه من لم يكن كذلك فإنّه لايستحقّ أن يعبد ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يفرد بالعبادة[5] .

الرابعة: التعريف في الأمر بقوله (وإليه يرجع الأمر كلّه) تعريف الجنس، فيعمّ الأمور جميعها كما سبق ذكره، وتأكيد الأمر بـ (كلّه) للتنصيص على هذا العموم[6].

الخامسة: مجيء قوله تعالى (وإليه يرجع الأمر كلّه) بعد قوله (ولله غيب السموات والأرض) للدلالة على أنّه سبحانه شامل القدرة كما هو شامل العلم[7].

---

(١) سورة هود : الآيتان (١ ، ٢).

(٢) نظم الدرر للبقاعي : ج٣ ص٥٩٢ .

(٣) التحرير والتنوير : ج١٢ ص١٩٤ .

(٤) انظر: تفسير القرطبي ج٩ ص١١٧؛ فتح القدير للشوكاني ج٢ ص٥٤٥.

(٥) انظر: التحرير والتنوير ج١٢ ص١٩٤-١٩٥ .

(٦) انظر: المرجع السابق ج١٢ ص١٩٥ .

(٧) انظر: نظم الدرر للبقاعي ج٣ ص٥٩٢.

السادسة : قرأ نافع وحفص: (وإليه يُرجع الأمر كلّه) بضمّ الياء في (يُرجع) على ما لم يُسمّ فاعله ، أي يُردّ الأمر كلّه إليه، وقرأ الباقون (يَرْجِعُ) بفتح الياء، أي يصير الأمر إليه[1]. وعلى كلتا القراءتين فإنّ الرجوع تمثيل لهيئة عجز الناس عن التصرّف في الأمور حسب رغباتهم بهيئة من تناول شيء ليتصرّف فيه ثم لم يستطع التصرّف به فردّه إلى الحريّ بالتصرّف به، أو تمثيل لهيئة خضوع الأمور إلى تصرّف الله دون تصرّف المحاولين التصرّف فيها بهيئة الباحث عن مكان يستقرّ به ثمّ إيوائه إلى المقرّ اللائق به ورجوعه إليه[2]. هذا وقد اختصر البغوي –رحمه الله تعالى – المعنى على كلتا القراءتين فقال: " أي يعود الأمر كلّه إليه حتى لا يكون للخلق أمرٌ "[3].

السابعة: إنّ في تقديم الأمر بعبادة الله تعالى على الأمر بالتوكّل عليه في قوله (فاعبده وتوكّل عليه) إشارة تنبيه على أنّ التوكّل على الله لاينفع بدون العبادة له، أي إنّما ينفع التوكّل العابد لله تعالى، فتقدّم الأمر بالعبادة في الذكر – ههنا– يشعر بتقدّمه في الرتبة والوقوع ولايتمّ ما بعده إلا به[4]. وذكر الآلوسي وجهاً لطيفاً سائغاً في هذا التقديم إذ قال : " وقيل التقديم والتأخير لأنّ المراد من العبادة امتثال الأوامر من الإرشاد والتبليغ وغير ذلك ، ومن التوكّل التوكّل

---

(١) انظر: النشر في القراءات العشر ج٢ ص٢٠٩ ؛ الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ج١ ص٥٣٨؛ حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٥٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ج١٢ ص١٩٥ .

(٣) تفسير البغوي : ج٢ ص٤٠٧ .

(٤) انظر: تفسير أبي السعود ج٤ ص٢٤٩؛ نظم الدرر ج٣ ص٥٩٢؛ تفسير البيضاوي ج٣ ص١٢٥؛ تفسير الآلوسي ج١٢ ص١٦٨.

فيه، كأنّه قيل: امتثل ما أمِرت به ودوام على الدعوة والتبليغ وتوكّل عليه في ذلك ولا تبال بالذين لايؤمنون ولا يضيق صدرك منهم"[1].

الثامنة : يلاحظ أنّ الله تعالى علّق وصف الغافل بالعمل في قوله (وما ربّك بغافلٍ عمّا تعملون) ولم يعلّقه بالذوات نحو: بغافلٍ عنكم؛ وذلك إيماء وإشارة إلى أنّ على العمل جزاء؛ وعدم غفلته عن أيّ عمل أنّه يعطي كلّ عامل جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشرٌّ [2].

وبهذه اللطيفة يتمّ الكلام حول هذا الموضع الكريم من مواضع أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه. ولله الحمد والمنّة.

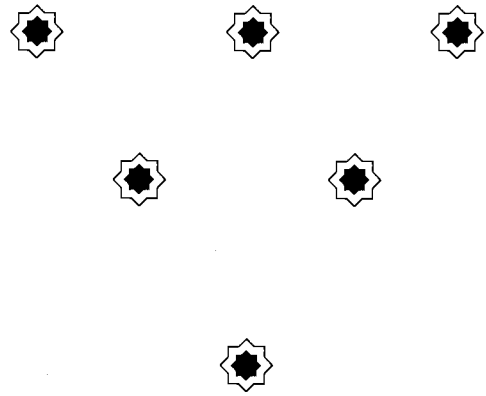

(١) تفسير الآلوسي : ج١٢ ص١٦٨ .

(٢) انظر: التحرير والتنوير ج ١٢ ص١٩٦ .

" الفصل الخامس "

" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد أمره بالاستغناء عن المشركين " - في آية سورة الفرقان -

قال الله تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرّهم وكان الكافر على ربّه ظهيراً . وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً . قل ما أسألكم عليه من أجرٍ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً . وتوكّل على الحيّ الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً . الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيامٍ ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيراً)[1].

المبحث الأول : مناسبة الأمر بالتوكّل في هذا المقام .

- لمّا بيّن الله تعالى جهل المشركين في عبادة غيره سبحانه من الأصنام التي لاتملك ضراً ولا نفعاً ؛ حيث لا دليل لهم ولا حجة فيها؛ بل ساقهم إليها مجرّد آرائهم الباطلة وأهوائهم المنحرفة، وهم مع ذلك يوالونها ويقاتلون في سبيلها ويعادون الله ورسوله ﷺ والمؤمنين من أجلها، وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله (ويعبدون من دون الله ما لاينفعهم ولايضرّهم وكان الكافر على ربّه ظهيراً)[2] ، لمّا بيّن الله تعالى ذلك من حال المشركين في جهلهم وعنادهم وعداوتهم توجّه بالخطاب للرسول ﷺ مخبراً إيّاه أنّه إنّما أرسله مبلّغاً

---

(١) سورة الفرقان : الآيات من (٥٥) إلى (٥٩).

(٢) قال ابن كثير : (ظهيراً) أي عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وقال مجاهد : يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه، وقال سعيد بن جبير : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك . (انظر : تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٤ – ٣٣٥) .

لدينه مبشراً لعباده الطائعين المؤمنين ونذيراً للكافرين المعرضين، وهو بهذا سبحانه يسلّي نبيه ﷺ ويطمئنه بأن لايحزن ولايضيق صدره بسبب إعراضهم وعداوتهم له ومظاهرتهم لإيذائه ، ثمّ أتبع ذلك بأن أمره أن يخبرهم أنّه غنيّ عنهم بسؤال أيّ أجر منهم في دعوته إلى ربّه تعالى، وذلك هو ما جاء في قوله تعالى (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً . قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً)[1]، ومن بعد ذلك ناسب أنّ الله تعالى يأمر رسوله ﷺ بأن يتوكّل عليه ويفوّض أمره إليه في دعوته إليه عزّوجلّ استكفاءً لشرورهم ودفعاً لمضارّهم ومكرهم واستغناءً به عن أجورهم ومنافعهم الدنيوية؛ إذ هو سبحانه مجازيه ﷺ ومجازيهم وهو بيده النفع والضرّ، وهو ناصره ومظهره عليهم ومعلي أمر دينه بلا ريب[2]، وذلك الأمر من الله تعالى هو قوله سبحانه لنبيه ﷺ (وتوكّل على الحيّ الذي لايموت وسبّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً)[3].

لطيفة :

لسليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل حاشية لطيفة في قوله تعالى (وما أرسلناك إلا مبشراً و نذيراً) إذ قال : " واقتصر على صيغة المبالغة في الإنذار لتخصيصه بالكافرين؛ إذ الكلام فيهم والإنذار الكامل لهم "[4].

---

(١) سورة الفرقان : الآيتان (٥٦ ، ٥٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٨/١٩ ؛ الكشاف للزمخشري ج٣ ص١٠٢؛ البحر المحيط ج٦ ص٥٠٨، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٥؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤ ص١٠٣؛ تفسير أبي السعود ج٦ ص٢٢٦؛ غرائب القرآن للنيسابوري ج١٩ ص٣٠؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص٩٧؛ تفسير الآلوسي ج١٩ ص٣٧؛ حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص٢٦٤؛ فتح القدير ج٤ ص٨٢؛ محاسن التأويل ج١٢ ص٢٧٠؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٥٩.

(٣) سورة الفرقان : الآية (٥٨).

(٤) حاشية الجمل على الجلالين : ج٣ ص ٢٦٤.

المبحث الثاني : بيان الأوصاف الإلهية في هذا المقام وصلتها.

- يلاحظ المتأمّل أنّ الله – تبارك وتعالى – وصف نفسه في هذا المقام الذي يأمر فيه نبيّه ﷺ بالتوكّل عليه بعدّة أوصاف إلهية دالّة ومؤكّدة على أنّه تعالى الحقيق بقصر التوكّل عليه دون غيره، وهي بذلك تقرّر حقيقة إيمانية وهي وجوب التوكّل والاعتماد عليه سبحانه وحده؛ وعدم جواز تفويض الأمر إلا إليه.
- وأوّل هذه الأوصاف (الحي الذي لايموت) إذ قال سبحانه (وتوكّل على الحيّ الذي لايموت)، فوصفه تعالى لذاته بالحيّ الذي لايموت يؤذن بتعليل الأمر بالتوكّل عليه؛ لأنّه الدائم الباقي ذو الحياة الكاملة المطلقة المستمرّة؛ وحياة غيره معرّضة للزوال والفناء بالموت؛ ومعرّضة لاختلال أثرها واضطرابه بالذهول كالنوم ونحوه فإنّه من جنس الموت –كما هو معلوم – فالتوكّل على غيره من الأحياء معرّض إذاً للاختلال والانخرام والانقطاع، وبالتالي فإنّهم إذا ماتوا ضاع من يتوكّل عليهم، فلا وثوق البتة في قضاء المصالح ولا اعتماد نافع إلا بالحيّ الدائم الذي لايموت سبحانه وتعالى، ولذلك قال بعض السلف لـمّا قرأ هذه الآية الكريمة : لايصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق[1] . وفي هذا المعنى قال صاحب نظم الدرر : " ولـمّا كان الأحياء من الخلق يموتون بيّن أنّ حياته ليست كحياة غيره فقال: (الحيّ الذي لايموت) أي فلا ضياع لمن توكّل عليه أصلاً ، بل هو

---

(١) انظر: الكشاف ج٣ ص١٠٢؛ البحر المحيط ج٣ ص٢٦٤؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤ ص١٠٣؛ تفسير أبي السعود ج٦ ص٢٢٦؛ تفسير الآلوسي ج١٩ ص٣٧؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص٩٧؛ غرائب القرآن للنيسابوري ج١٩ ص٣٠؛ حاشية الصاوي على الجلالين ج٣ ص١٦٣؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٨٢؛ تفسير السعدي ج٥ ص٤٨٨؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٥٩ .

المتولّي لمصالحه في حياته وبعد مماته ، ولا تلتفت إلى ما سواه بوجه فإنّه هالك"[1]. وثاني الأوصاف الإلهية : علمه الشامل بأحوال عباده، وهو ما دلّ عليه قوله تعالى (وكفى به بذنوب عباده خبيراً) والمراد : أي حسبك الله تعالى ولاتحتاج معه إلى غيره لأنه خبير بأحوالهم ، والخبرة شدّة العلم، وهو قادر على مجازاتهم ومكافأتهم[2] .

وبهذه الجملة الكريمة الدالّة على علم الله تعالى الشامل يقرّر ويؤكّد وجوب التوكّل عليه سبحانه؛ إذ من كان هو كذلك شامل العلم فهو الحقيق بالتوكّل[3]. وهذا ما قرّره صاحب التحرير والتنوير بقوله: " وفي فعل (كفى) إفادة إلى أنّه لايحتاج إلى غيره ، وهو مستعمل في الأمر بالاكتفاء بتفويض الأمر إليه." [4] وذلك استناداً إلى عموم علمه تعالى الذي دلّت عليه هذه الجملة القرآنية. وثالث ما وصف به تعالى ذاته في هذا المقام قوله (الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش)، فقوله تعالى: (الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ...) زيادة تقرير لوجوب التوكّل عليه وأنّه سبحانه الحقيق به ؛ إذ فيه دلالة على أنّه قادر على كل شيء ، وذلك لأنّه لـمّا كان سبحانه الخالق للسموات والأرض ولكلّ ما بينهما ثبت أنّه القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضارّ وأنّ النّعم كلّها منه -عزّوجلّ- وهو المتصرّف في خلقه كيف يشاء وبما يشاء، فحينئذ لايجوز

---

(١) نظم الدرر للبقاعي : ج٥ ص٣٣١ .

(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ج٦ ص٥٠٨؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤ ص١٠٣؛ حاشية الصاوي على الجلالين ج٣ ص١٦٣؛ تفسير السعدي ج٥ ص٤٨٩.

(٣) انظر : تفسير أبي السعود ج٦ ص٢٢٧ .

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور : ج١٩ ص٦٠ .

التوكّل إلا عليه[1]. وفي هذا قال أبو السعود : " ومحلّ الموصول الجرّ مع أنه صفة أخرى للحيّ، وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالأبدية التي هي من الصفات الذاتية، والإشارة إلى اتصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكّل عليه تعالى وتأكيده ، فإنّ من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين في أوقات معيّنة مع كمال قدرته على إبداعها دفعة لحكم جليلة وغايات جميلة لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكّل عليه وأولى من يفوّض الأمر إليه"[2]. ورابعها : وصف (الرحمن) الذي ورد في قوله تعالى (الرحمن فسئل به خبيراً) ، وهو خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن ، وهذا من حذف المسند إليه الغالب في الاستعمال عندما تتقدّم أخبار أو أوصاف لصاحبها، ثم يراد الإخبار عنه بما هو إفصاح عن وصف جامع لما مضى أو أهمّ في الغرض مما تقدّمه، فإنّ وصف الرحمن أهمّ في الغرض المسوق له الكلام ، وهو الأمر بالتوكّل عليه تعالى؛ فإنّه وصف يقتضي أنّه يدبِّر أمور من توكّل عليه بقويّ وكامل الرحمة والإسعاف والرأفة ، وبهذا يأتي هذا الوصف مفيداً لزيادة تقرير وتأكيد ما ذكر من وجوب التوكّل عليه سبحانه مع الأوصاف الثلاثة السابقة[3].

وبهذا الاسم الجليل لله تعالى وهذه الصفة الجامعة تختتم أوصافه -سبحانه وتعالى- في هذا المقام الكريم الذي يأمر فيه رسوله ﷺ وخليله وخير من

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤ ص١٠٣؛ غرائب القرآن للنيسابوري ج١٩ ص٣٠؛ حاشية الصاوي على الجلالين ج٣ ص١٦٣؛ تفسير الآلوسي ج١٩ ص٣٨؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٦٠ .

(٢) تفسير أبي السعود: ج٦ ص٢٢٧ .

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ج٦ ص٢٢٧ ؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٦٠.

توكّل عليه بالتوكّل.. ولعظم هذا الوصف الجامع الجليل فُرِّع عليه قوله بعده (فسئل به خبيراً) للدلالة على أنّ في رحمته من العظمة والشمول ما لاتفي به العبارة فيعدل عن زيادة التوصيف إلى الحوالة على عليم بتصاريف رحمته مجرّب لها متلقٍّ أحاديثها ممن علمها وجرّبها[1].

فوائد ولطائف :

الأولى: إنّ في ذكر الوصفين في قوله تعالى (الحيّ الذي لايموت) إفادة لحصر التوكّل في الكون على الله تعالى؛ إذ هو الحيّ الباقي الدائم الذي لايموت، كما أنّ في ذكرهما تعريضاً بالمشركين الذين علّقوا آمالهم وأناطوها بالأصنام وهي أموات غير أحياء[2] .

الثانية : إنّ في مجيء الأمر بالتسبيح لله تعالى بعد الأمر بالتوكّل عليه في قوله (وسبّح بحمده) إشارة إلى أن يقرن بين التوكّل والعبادة لله تعالى؛ لأنّ أمره بالتسبيح – كما هو معلوم – تنزيهه سبحانه عمّا لا يليق به، وأوّل ذلك تنزيهه عن الشرك في الإلهية بإخلاص العبادة له وحده[3]. وإلى هذا ذهب ابن كثير رحمه الله تعالى حيث قال : " أي أخلص له العبادة والتوكّل كما قال تعالى (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً)[4]. وقال : (فاعبده وتوكل عليه)[5]. وقوله : (قل هو الرحمن آمنّا به وعليه توكلنا)[6]."[7]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٩ ص٦٠ .

(٢) انظر: المرجع السابق ج ١٩ ص٥٩ .

(٣) انظر: تفسير السعدي ج٥ ص٤٨٩؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٦٠.

(٤) سورة المزمل : الآية (٩).

(٥) سورة هود : الآية (١٢٣).

(٦) سورة الملك : الآية (٢٩).

(٧) تفسير ابن كثير : ج٣ ص ٣٣٥ .

ولا ريب أنّ طاعة الله وعبادته وتنـــزيهه وتحميده هي أساس الالتجاء إليه تعالى والتوكّل عليه والاستعانة به.

الثالثة: الباء في قوله تعالى (بحمده) للمصاحبة ، أي سبّحه تسبيحاً مـــصاحباً للثناء عليه بما هو أهله ، أي اقرن بين حمده وتسبيحه، وهو بهذا فقد جمع لـــه في هذا الأمر بين التخلية والتحلية[1].

الرابعة : لصاحب التحرير والتنوير تنبيه لطيف في قوله تعـــالى (وكفـــى بـــه بذنوب عباده خبيراً) في احتوائه ثلاث عمومات إذ قال عنه " اعتـــراض في آخر الكلام، فيفيد معنى التذييل لما فيه من الدلالة على عمـــوم علمـــه تعـــالى بذنوب الخلق، ومن ذلك أحوال المشركين الذين هم غرض الكلام، ففي ذنوب عباده عمومان، عموم ذنوبـــهم كلّها لإفادة الجمع المـــضاف عمـــوم أفـــراد المضاف، وعموم الناس لإضافة (عباد) إلى ضمير الجلالة، أي جميع عباده، مع ما في صيغة (خبير) من شدّة العلم وهو يستلزم العموم فكان كعموم ثالث"[2].

الخامسة: إنّ كلمة (كفى) الواردة في قوله تعالى (وكفى به بـــذنوب عبـــاده خبيراً) يراد بها المبالغة ، يقال : كفى بالعلم جمالاً ، وكفى بالأدب مالاً ، وهي بمعنى حسبك لاتحتاج معه إلى غيره (كما سبق بيانه) وبهذا فإن هـــذا الـــنصّ الكريم يتضمّن تسلية للنبي ﷺ من جهة؛ ووعيداً شديداً للمشركين من جهة أخرى ، تسلية للنبي ﷺ في أنّه سبحانه يخبره أنّه كافيـــه شأن المشركين

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج٣ ٣٣٥؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٩ ص٦٠ .

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور : ج١٩ ص٦٠ .

المعاندين فيردّ عنه كيدهم وينصره عليهم، ووعيد للمشركين كأنّه قال إن أقدمتم على مخالفة أمره وعداوة رسوله والمؤمنين ورغبتم عن الحق وبقيتم على ذلك فإنّه كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة[1].

السادسة : تفيد الباء في قوله تعالى (بذنوب عباده خبيراً) تأكيد إسناد الفعل إلى الفاعل[2] .

السابعة : التنكير في قوله تعالى (خبيراً) للدلالة على العموم ، أي فلا تظنّ خبيراً معيّناً ، لأن النكرة إذا تعلّق بها فعل الأمر اقتضت عموماً بدليل أيّ خبير سألته أعلمك[3].

الثامنة : تقديم المجرور في قوله تعالى : (فسئل به خبيراً). للاهتمام ورعاية الفاصلة[4].

وبهذه الفوائد يتمّ الكلام حول هذا الموضع الكريم من مواضع أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بالتوكّل عليه في آيات القرآن الكريم ولله الحمد والمنّة.

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤ ص١٠٣؛ البحر المحيط ج٦ ص٥٠٨؛ فتح القدير ج٤ ص٨٢؛ تفسير السعدي ج٥ ص٤٨٩، التحرير والتنوير ج١٩ ص٦٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ج١٩ ص٦٠ .

(٣) المرجع السابق ج١٩ ص٦١ .

(٤) المرجع السابق ج١٩ ص ٦١ .

" الفصل السادس "

" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكل عليه حال معصية عشيرته الأقربين بعد إنذارهم "

- في آية سورة الشعراء -

قال الله تعالى : (فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين . إنه هو السميع العليم)[1].

المبحث الأول: مناسبة الأمر بالتوكّل في هذا المقام .

يبتدئ الحديث في هذه الآيات الكريمات - التي يأمر الله تعالى فيها نبيّه ﷺ بالتوكّل عليه بنهيه وإنذاره أن يتخذ شريكاً مع الله تعالى في العبادة حيث قال سبحانه (فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذّبين) [2]. وهذا النهي - بلا ريب - يقتضي الأمر بضدّه من إخلاص العبادة لله وحده دون سواه. ولمّا أنذر الرسول ﷺ وأُمِرَ بما فيه كمال نفسه أمره عزّوجلّ بعد ذلك بإنذار عشيرته الأقربين وهو ما فيه تكميل لهم فقال (وأنذر عشيرتك الأقربين) [3] وهم الأدنون من قبيلته قريش[4] ، هذا ولمّا كان هذا الإنذار لعشيرته يترتّب عليه

---

(١) سورة الشعراء : الآيات من (٢١٣) إلى (٢١٩).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٢١٣).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٢١٤)

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٢؛ تفسير السعدي ج٥ ص٥٥١-٥٥٢؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٠٢.

وينشأ عنه إمّا الطاعة وإمّا العصيان جاء التقسيم من بعدُ فأمر ﷺ أن يخفض جناحه لمن اتبعه وآمن به، أي يلين جانبه ويتواضع لهم، ومن عصاه فعليه أن يتبرأ من أعمالهم في شركهم بالله تعالى[1]، وذلك هو قوله تعالى (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. فإن عصوك فقل إني بريء ممّا تعملون)[2].

وقد تكون الجملة الكريمة (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) معترضة بين الجملتين الكريمتين ابتداراً لكرامة المؤمنين قبل الأمر بالتبرؤ من أعمال الذين لا يؤمنون وبعد الإنذار الذي لا يخلو من وقع أليم في النفوس[3]. ولما كان التبرّؤ من أعمال المشركين العاصين ومفارقتهم ومخالفتهم في شركهم بالله تعالى يؤذن ويؤدّي غالباً بحدوث مجافاة وعداوة وتحزّب ضدّه ﷺ وضدّ أوليائه وأتباعه من هؤلاء المشركين، إضافة إلى ما يكون من نتائج لعصيانهم وبقائهم على الشرك من خلل واضطراب في أحوال أمّته ﷺ؛ حينذلك ثبّت الله رسوله ﷺ بأن أرشده ألاّ يعبأ بهم ويضرّه حالهم ويحزن بسببه فبيّن له ما يعتمد عليه تجاه ذلك فأمره بالتوكّل عليه ؛ إذ هو سبحانه كافيه وناصره ومؤيّده وحافظه ومظهر أمره عليهم، وذلك قوله عزّوجلّ (وتوكّل على العزيز الرحيم. الذي يراك حين تقوم وتقلّبك في الساجدين . إنّه هو السميع العليم)[4].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ج١٩ ص٧٦؛ تفسير البغوي ج٣ ص٤٠٢؛ البحر المحيط ج٧ ص٤٦؛ تفسير الثعالبي ج٣ ص١٥٣؛ تفسير الخازن ج٥ ص١٢٩؛ حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص٢٩٦؛ حاشية الصاوي على الجلالين ج٣ ص١٨٣؛ تفسير الآلوسي ج١٩ ص١٣٦؛ التفسير الواضح لحجازي ج٢ ص١٥٨.

(٢) سورة الشعراء : الآيتان (٢١٥-٢١٦) .

(٣) التحرير والتنوير: ج١٩ ص٢٠٢ .

(٤) سورة الشعراء : الآيات (٢١٧ – ٢١٨ – ٢١٩).

وبهذا البيان يتضح جليّاً وجه مناسبة أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه في هذا المقام [1] والله أعلم بمراده.

فوائد ولطائف :

الأولى : روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لمّا أنزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) [2] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال: " يا بني كعب بن لؤيّ أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسكِ من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلالها"[3].

الثانية: إنّ في خطاب النبي ﷺ بالنهي عن أن يتخذ إلهاً مع الله تعالى في قوله تعالى (فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذّبين) – مع كونه ﷺ منزّهاً

---

(١) انظر: الطبري ج١٩ ص٧٦؛ تفسير البغوي ج٣ ص٤٠٢؛ تفسير القرطبي ج١٣ ص١٤٤؛ تفسير أبي السعود ج٦ ص٢٦٨؛ غرائب القرآن للنيسابوري ج١٩ ص٧٥؛ حاشية الصاوي على الجلالين ج٣ ص١٨٣؛ تفسير الآلوسي ج١٩ ص١٣٦؛ فتح القدير ج٤ ص١١٦؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٠٤.

(٢) سورة الشعراء : الآية (٢١٤)

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان ،باب بيان أنّ من مات على الكفر فهو في النار (ولاتنالـه شفاعة ولاتنفعه قرابة المقربين) حديث رقم (٣١٦) ج١ ص ٤٨٢ (صحيح مسلم بشرح النووي – طبعة كتاب الشعب ، تحقيق وإشراف عبد الله أبو زينة.

وقوله صلى الله عليه وسلم : (غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلالها) البِلال: الماء ومعنى كلامه أي سأصِلها، شبّهت قطيعة الرحم بالحرارة ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة . (انظر: شرح النووي لصحيح مسلم ج١ ص٤٨٣ – كتاب الشعب).

عن الشرك بالله ومعصوماً عنه ويستحيل صدوره منه – حثاً له على مزيد الإخلاص والثبات والدوام على التوحيد ، هذا في جانبه ﷺ ؛ أما في جانب غيره من المكلّفين فإن فيه لطفاً وعنايةً وتنبيهاً لهم ببيان أنّ الشرك بالله من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لايمكن صدوره منه؛ فكيف بمن عداه، ففيه تأكيد لحثّهم على التوحيد ونهيهم عن الشرك وشوائبه[1].

الثالثة : لصاحب التحرير والتنوير لطيفة في وجه وصف العشيرة بالأقربين مع أنّ هذا الوصف حاصل للعشيرة من دون ذكره حيث قال في ذلك أنّه " تأكيد لمعنى العشيرة واجتلاب لقلوبهم إلى إجابة ما دعاهم إليه وتعريض بأهل الإدانة منهم"[2].

الرابعة :إنّ في تخصيص أمر إنذاره ﷺ لعشيرته الأقربين مع كونه ﷺ مأموراً بإنذار الناس كافّة إشارات ودلالات ذكرها بعض المفسرين (أحدها) أنّه يجب أن لايأخذه في باب التبليغ ما يأخذ القريب للقرب من المساهلة ولين الجانب، ففيه إظهار لعدم المحاباة في شأن الدين والتوحيد وأنّهم والناس في التخويف والإنذار سواء، وإذا كان القرابة قد خوّفوا وأنذروا مع ما يلحق الإنسان في حقّهم من الرأفة كان غيرهم في ذلك أوكد وأولى. [3] وعبّر عن هذه الإشارة القرطبي بقوله: " خصّ عشيرته الأقربين لتنحسم أطماع سائر عشيرته، وأطماع الأجانب في مفارقته إيّاهم على الشرك[4]، (وثانيها) ما ذكره الثعالبي بقوله : " وخصّ بإنذار

---

(١) انظر: تفسير ابي السعود ج٦ ص٢٦٨؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص١١١؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص١١٦.

(٢) التحرير والتنوير : ج١٩ ص٢٠٢ .

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ج٧ ص٤٦؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص١١٠؛ فتح القدير ج٤ ص١١٦؛ تفسير السعدي ج٥ ص٥٥١-٥٥٢.

(٤) تفسير القرطبي : ج ١٣ ص١٤٣ .

عشيرته لأنّهم مظنّة الطواعية ؛ وإذ يمكنه من الإغلاظ عليهم ما لايحتمله غيرهم ، ولأنّ الإنسان غير متّهم على عشيرته"[1]. وكلامه هذا يدلّ على أنّ من حكمة الداعية البداءة بعشيرته في الدعوة والتبليغ، فإن هم أجابوه تقوّى بهم في دعوته وكانوا له نصراء ، وهذا أمر مهمّ بالنسبة له، وهذا ما كان من شأنه ﷺ أنّه لما أمر بمبادأة الناس بالدعوة أمر أولاً بإنذار عشيرته كما هو مذكور في سيرته عليه الصلاة والسلام [2]. (وثالثها) أنّ في ذلك كسراً من أنفة الأبعد للمواجهة بما يكره لأنّه سلك به مسلك الأقرب[3].

أقول : و في هذا التخصيص – بلاشكّ– دلالة على تأكيد حقّ الأقربين في الدعوة والتبليغ وزيادة الحثّ وبذل الجهد تلو الجهد بشأن هدايتهم، وأنّهم أولى بالتقديم من غيرهم بالنسبة للداعية إلى الله؛ إذ هم أحقّ الناس بإحسانه الديني والدنيوي؛ ومن أعظم الإحسان إليهم دعوتهم لما فيه نجاتهم من عذاب الله تعالى وما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة. فعلى الدعاة إلى الله أن يتخذوا من هذا الأمر الإلهي للرسول ﷺ درساً وعبرة، فيجعلوا من أوّل واجباتهم وآكدها عليهم إصلاح قراباتهم وعوائلهم وأن لا يذهبوا بدعوتهم بعيداً عنهم إلى غيرهم ويتركوهم بلا نصح ولا إصلاح.

الخامسة: خفض الجناح مثل قرآني في التواضع وغاية اللّين، ذلك – كما ذكرت آنفاً – أنّ الطائر إذا أراد أن يرتفع رفع جناحيه، فإذا أراد أن ينحطّ كسرهما

---

(١) تفسير الثعالبي : ج ٣ ص ١٥٣ .

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام : ج١ ص٢٦٢-٢٦٣ . (طبعة مؤسسة علوم القرآن تحقيق: مصطفى السقاو إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي).

(٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي ج٥ ص٣٩٧ .

وخفضهما[1]، ولا ريب أنّ استعمال القرآن الكريم للأمر بالتواضع بهذا المثل التصويري فيه تعميق للأمر به وإظهار أثره الإيجابي. وفي هذا الأمر إرشاد للداعية إلى الله تعالى أن يكون في غاية التواضع لإخوانه المتبعين للحقّ أسوة بالنبي ﷺ التي حفلت سيرته بهذا الأدب مع صحابته رضي الله عنهم . وفي هذا الإرشاد الإلهي قال محمد حجازي في تفسيره : " وهذه نصائح غالية تنفع الدعاة والمرشدين إلى الحق والخير، حيث تبدأ دعوتك أقرب الناس إليك فهم الذين يعرفونك ويثقون فيك، فإذا أضفت مع هذا لين الجانب وحسن الخلق وطيب العشرة لمن اتبعك وسار على طريقك كان لكلامك وقع ولشخصك مكانة في القلوب ولسلوكك في الناس تأثير وأيّ تأثير.. "[2]

السادسة : يُلاحظ في قوله تعالى (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أنّه جاء بلفظ (لمن اتبعك) ولم يأت به في آية سورة الحجر (ولاتحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) [3] ؛ وذلك لدفع التوهّم بأنّ خفض الجناح مختصٌّ بالمؤمنين من عشيرته خاصة دون غيرهم وهو غير مراد، كما أنّه لم يقتصر على قوله (لمن اتبعك) دون ذكر (من المؤمنين)؛ لأنّه قد يكون ممّن يتّبعه إنّما يتّبعه للقرابة أو النسب أو غير ذلك من الأغراض الدنيوية لا للدين، ولايخفى ما في هذا البيان من التنويه بشأن الإيمان وأهله[4].

---

(١) انظر: نظم الدرر ج٥ ص٣٩٨؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص١١١؛ التحرير والتنوير ج١٩ص٢٠٢.

(٢) التفسير الواضح لمحمد حجازي: ج٢ ص١٥٨ .

(٣) سورة الحجر : الآية (٨٨) .

(٤) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري ج١٩ ص٧٥ ؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص١١١؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٠٣ .

السابعة : يلاحظ أنّ الله تعالى أرشد رسوله ﷺ حال معصية عشيرته له وبقائهم على الشرك أن يعلن لهم براءته من عملهم وشركهم إذ قال له (فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون) ولم يرشده إلى التبرؤ منهم، ولعلّ الحكمة في ذلك أن يبقى بينه ﷺ وبينهم صلة قد تكون سبباً فيما بعد إلى رجوعهم للحقّ والإيمان بالله تعالى ، فالتبرؤ إنّما هو من كفرهم وهو لا يمنع من صلتهم لأجل الرحم والقرابة وإعادة النصح لهم وهو ما عبّر عنه ﷺ في خطابه لهم بعد إنذارهم بقوله: " غير أنّ لكم رحماً سأبلّها ببلالها "(١). وهو معنى قوله تعالى أيضاً لرسوله ﷺ في آية سورة الشورى: (قلْ لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى..) الآية(٢).

الثامنة : قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (فتوكّل على العزيز الرحيم) أي عُطف الأمر بالتوكل بفاء التفريع، فيكون تفريعاً على قوله تعالى (فإن عصوك فقل إني بريءٌ مما تعملون)؛ وذلك تنبيهاً على المبادرة بالعوذ من شرّ أولئك الأعداء وتنصيصاً على اتصال التوكّل بقوله (إني بريء مما تعملون) ، وقرأ الباقون : (وتوكل) أي بالعطف بالواو ، وهو بهذا عطف على جواب الشرط، أي قلْ إني بريء وتوكّل؛ وعطفه على الجواب يقتضي تسبّبه على الشرط كتسبب الجواب، وهو يستلزم البدار به، وهكذا فمآل القراءتين وحاصلهما واحد وإن اختلف طريق الانتزاع(٣).

---

(١) سبق تخريجه وبيان معناه في أوّل الفوائد.

(٢) سورة الشورى : الآية (٢٣) . وانظر: التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٠٣ .

(٣) انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ ص٣٣٦؛ الحجة للقراء السبعة لأبي علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي ج٢ ص١٥٣؛ حجة القراءات لابن زنجلة ص ٥٢٢-٥٢٣؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص١١٦؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٠٣.

المبحث الثاني: بيان أوصاف الله تعالى ووجه تعلّق التوكّل بها في هذا المقام .

- يلاحظ أنّ الله – تبارك وتعالى – لـمّا أمر رسوله ﷺ بالتوكّل عليه علّقه بذكر بعض أسمائه الحسنى وصفاته العليا والتي جاءت – بلا ريب– في غاية المناسبة بهذا المقام، إذ قال سبحانه (وتوكّل على العزيز الرحيم. الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين . إنّه هو السميع العليم)[1] ، وعبّر عن هذه المناسبة ابن عاشور حيث قال : " وعلّق التوكّل بالاسمين (العزيز الرحيم) وما تبعهما من الوصف بالموصول وما ذيّل به من الإيماء إلى أنّه يُلاحظ قوله ويعلم نيّته ، إشارة إلى أن التوكل على الله يأتي بما أومأت إليه هذه الصفات ومستتبعاتها"[2].

وأوّل هذه الصفات العليا (العزيز الرحيم) وهاتان الصفتان هما اللتان كُرِّرتا في أواخر قصص هذه السورة بقوله تعالى (وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم)؛ وذلك فيما يشبه الاعتبار ههنا في هذا المقام.

هذا ولـمّا كان الكلام –هنا – عن أمر التبرؤ من المشركين، وسيكون من بعده ما يظهر من جرّاء العناد والكفر الكيد والشرّ والأذى برسول الله ﷺ ناسب مجيء هاتين الصفتين في أوّل أمره بالتوكّل، أي فتوكّل على الغالب القهّار الذي يقهر ويغلب أعداءك بعزته وينصرك ويؤيّدك ويعلي شأنك عليهم ويعصمك منهم برحمته سبحانه.

ولذلك قال الثعالبي في هاتين الصفتين : " ثم جاء بالصفتين التي تونس المتوكّل وهي العزّة والرّحمة"[3]. ولا يكون الإيناس بهما في هذا المقام إلا بما تؤدي إليهما من المعاني التي يرجوها المتوكّل في ربّه عزّوجلّ ، وإضافةً إلى هذه المناسبة فإنّ ذكر

---

(١) سورة الشعراء : الآيات (٢١٧-٢١٨-٢١٩).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور : ج١٩ ص٢٠٤ .

(٣) تفسير الثعالبي : ج٣ ص١٥٣ .

هاتين الصفتين في هذا الموضع دالٌّ على أن من كان كذلك فهو المستحقّ للتوكّل، وهو الذي ينبغي أن يتوكّل عليه دون غيره، والتوكّل على من هو بهذين الوصفين الكريمين هو التوكّل الحقّ والمطلوب الذي لا يخيب صاحبه ولايخزى[1].

- ثمّ يجيء الوصف لله تعالى بالموصولية في قوله عزّوجل (الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين) أي الذي يراك حين تقوم وحدك لصلاة الليل وحين تصلي في الجماعة راكعاً وساجداً وقائماً[2]. وهذا إخبار منه تعالى بعلمه الشامل المحيط بحاله ﷺ والذي يقتضي الكفاية له في كلّ ما ينوبه من دفع الضرّ عنه وجلب النفع له. وفي هذا – بلاشكّ– إظهار لعنايته تعالى برسوله ﷺ ورعايته له، ولذلك قال ابن كثير عن هذا الوصف لله عزّوجلّ : " أي هو معتن بك كما قال تعالى: (فاصبر لحكم ربك فإنّك بأعيننا) [3] "[4]. وفي هذه الإشارة بالعناية والرعاية تحقيق للتوكّل عليه سبحانه، وتوطين لقلب الرسول ﷺ ، يقول أبو السعود : " وإنّما وصف الله ذاته بعلمه بحاله ﷺ التي بها

---

(١) انظر: تفسير الطبري ج١٩ ص٧٧؛ تفسير البغوي ج٣ ص٤٠٢؛ تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٥؛ تفسير القرطبي ج١٣ ص١٤٤؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤ ص١٧٣؛ تفسير أبي السعود ج٦ ص٢٦٨؛ البحر المحيط ج٧ ص٤٧ ؛ نظم الدرر ج٥ ص٣٩٨؛ تفسير الخازن ج٥ ص١٢٩؛ تفسير الآلوسي ج١٩ ص١٣٦؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص١١١؛ حاشية الصاوي على الجلالين ج٣ ص١٨٣؛ فتح القدير ج٤ ص١١٦؛ تفسير السعدي ج٥ ص٥٥٤؛ التفسير الواضح لحجازي ج٢ ص١٥٨؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٠٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري ج١٩ ص٧٧؛ تفسير البغوي ج٣ ص٤٠٢؛ البحر المحيط ج٧ ص٤٧؛ تفسير القرطبي ج١٣ ص١٤٤؛ فتح القدير ج٤ ص١١٦؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٠٤.

(٣) سورة الطور : الآية (٤٨).

(٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٢. وانظر : التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٠٤ .

يستأهل ولايته بعد أن عبّر عنه بما ينبيء عن قهر أعدائه ونصر أوليائه من وصفي العزيز الرحيم تحقيقاً للتوكّل وتوطيناً لقلبه عليه"[1].

- ويختم الله – تعالى – ذكر صفاته في مقام الأمر بالتوكّل عليه بذكر صفتي السمع والعلم في قوله سبحانه : (إنّه هو السميع العليم) وهو ما يعلّل ويؤكّد شمول علمه المستفاد من قوله قبله (الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين) ، وفي هذا مزيد تثبيت للنبي ﷺ في توكّله على ربّه عزّوجلّ وثقته به، وحول هذا المعنى يقول صاحب نظم الدُّرر: " ولما كانت هذه الأحوال مشتملة على الأقوال ، وكان قد قدّم الرؤية المتضمّنة للعلم علّل ذلك بالتصريح به مقروناً بالسمع فقال : (إنه هو السميع العليم) أي وحده السميع لجميع أقوالكم العليم بجميع ما تسرّونه وتعلنونه من أعمالكم .. وقد تقدّم أنّ شمول العلم يستلزم تمام القدرة فصار كأنّه قال إنّه السميع العليم البصير القدير تثبيتاً للمتوكّل عليه.. "[2].

فوائد ولطائف :

الأولى : تقديم وصف العزّة لله تعالى على وصف الرحمة في قوله (وتوكّل على العزيز الرحيم) لأنّه أوفق بمقام التسلّي عن المشاقّ اللاحقة من عشيرته ﷺ. وقيل – أيضاً – لأنّ العزّة كالعلّة المصححة للتوكّل؛ والرحمة كالعلّة الداعية إليه[3]. والله أعلم بمراده .

---

(١) تفسير أبي السعود : ج٦ ص٢٦٨ .

(٢) نظم الدرر للبقاعي : ج٥ ص٣٩٩ .

(٣) انظر: تفسير الآلوسي ج١٩ ص١٣٦ .

الثانية : إنّ في خطاب الله تعالى لنبيّه ﷺ في مقام أمره بالتوكّل عليه بقوله (الذي يراك حين تقوم . وتقلّبك في الساجدين) تنبيهاً له ﷺ على الاستعانة باستحضار قرب الله تعالى والنزول في منزل الإحسان، وإنّما خصّ الصلاة بالذكر لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربّه خشع وذلّ وأكملها ، وبتكميلها يكمل سائر عمله ويستعين بها على جميع أموره ومثل ذلك قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة..) الآية[1] .

ولاريب أنّ استحضار العبد المؤمن رؤية الله تعالى له في جميع أحواله وسمعه لما ينطق به وعلمه بما ينطوي عليه قلبه من الهمّ والعزم والنيات يعينه على بلوغ منزلة الإحسان والارتقاء إلى أعلى درجات التوكّل على الله تعالى، إذ كلّما كان العبد في غاية الإحسان كان بالغاً أقصى درجات التوكّل وأخلصها [2].

الثالثة: الإتيان بالجملة الاسمية في قوله تعالى (إنّه هو السميع العليم) إشارة إلى أنّه سبحانه متصف بما ذكر أزلاً وأبداً ولا توقّف لذلك على وجود المسموعات والمعلومات في الخارج . ثمّ إنّ ضمير الفصل (هو) يفيد الحصر والتأكيد ، أي هو تعالى كذلك لاغيره[3].

وبهذه الفوائد يتمّ الكلام حول هذا الموضع الكريم من مواضع أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه ولله الحمد والمنّة .

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٥).

(٢) انظر: تفسير السعدي ج٥ ص٥٥٤ .

(٣) انظر: روح المعاني للآلوسي ج١٩ ص١٣٨؛ التحرير والتنوير ج١٩ ص٢٠٤.

"الفصل السابع"

" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه في معرض إخباره بقضائه بين المختلفين بشأن القرآن الكريم " - في آية سورة النمل -

قال الله تعالى : (إنّ هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون . وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين . إنّ ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم . فتوكّل على الله إنّك على الحق المبين . إنّك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) (١).

المبحث الأول : مناسبة الأمر بالتوكّل في هذا المقام .

- **ذكر الله تعالى فيما قبل هذه الآيات الكريمات حال المشركين في طعنهم بالقرآن الكريم وتكذيبهم بوعيده (وقال الذين كفروا أءذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين) (٢)، ومن ثمّ ذكر سبحانه في بداية هذه الآيات عن بني إسرائيل ما يقتضي طعنهم في القرآن الكريم كذلك بما فيه من مخالفة لما في كتبهم (إنّ هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون)، وذلك مما اختلفوا فيه من شأن عيسى عليه السلام وغلوّهم وإفراطهم وتفريطهم ، ومن بعد ذكر سبحانه عن المؤمنين بأنّهم اهتدوا به وكان لهم رحمة فهم موقنون بما فيه. هذا ولمّا بين الله تعالى ذلك تمخّض**

---

(١) سورة النمل : الآيات من (٧٦) إلى (٨١).

(٢) سورة النمل: الآيتان (٦٧ ، ٦٨).

الكلام عن خلاصة ونتيجة وهي افتراق النـــاس في القـــرآن إلى فـــريقين: فريق طاعن مكذّب وفريق موقن مؤمن، فلا جرم اقتضى هـــذا الافتـــراق حدوث تدافع بين الفريقين، وهو ممّا يثير تساؤلاً في نفوس المؤمنين عن مدى هذا التدافع والتخالف، ومتى ينكشف الحقّ ويظهر، فحينذلك جاء قـــول الحقّ سبحانه (إنّ ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العلـــيم) ، وفيـــه تسلية للرسول ﷺ وللمؤمنين عمّا يدور في أنفسهم، ولّما أخبر الله تعـــالى رسوله ﷺ أنّه هو الذي يقضي بين المختلفين أرشده إلى أن يثبـــت علـــى الحقّ الذي يحمله ويدعو إليه ويطمئن بالاً ولا يحزن فيما يجده من الـــصدود والتكذيب من المشركين المخالفين، وعماد هذا الإرشاد الكريم أمْرُه ﷺ بالتوكّل عليه وتفويض الشأن كلّه إليه؛ إذ هو سبحانه القاضي بين عبـــاده وهو كافيه وقاضٍ له بحقّه وعظيم أجره ومؤيّده ومظهر أمره؛ وهـــو قـــاضٍ كذلك على معانده ومكذّبه بما يستحقّه من الانتقام والجزاء الموافق لعنـــاده واستكباره وتكذيبه، وهذا هو قوله سبحانه (فتوكّل على الله إنـــك علـــى الحقّ المبين)، فاقتران فعل الأمر بالتوكّل بالفاء تفريعاً وترتيباً لهـــذا الأمـــر الإلهي على ما ذكر من شؤونه –عزّوجلّ– من قضائه وحكمه وعزّته وعلمه فيما قبل؛ حيث إنّـــها موجبة للتوكّل عليه وداعية إلى الأمر بـــه[1] . وفي هذه المناسبة يقول الشيخ السعدي: " أي اعتمد على ربّك في جلب المصالح ودفع المضارّ وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء" [2] .

---

(١) انظر: تفسير الطبري ج ٢٠ ص٩؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤ ص٢١٦؛ تفسير أبي السعود ج٦ ص٢٩٩؛ تفسير الآلوسي ج٢٠ ص١٩؛ حاشـــية الجمـــل ج٣ ص٣٢٦؛ حاشـــية الصاوي ج٣ ص٢٠٤؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص١٤٦؛ التحرير والتنوير ج٢٠ ص٣٢-٣٣ .

(٢) تفسير السعدي : ج ٥ ص٦٠٠.

- هذا و لم يقف كلام الحق سبحانه عند أمره لرسوله ﷺ بالتوكّل فقط؛ بل أتبعه – عزّوجلّ- بما يؤكد معنى التوكّل عليه في قلبه ويثبته ويربط جأشه، وذلك بذكر علّة مهمّة لضرورة التوكّل ولزومه؛ إذ خاطبه بقوله بعد أمره بالتوكّل عليه (إنّك على الحقّ المبين) ، ومن أجل هذا قال أبو السعود عن هذه الجملة الكريمة أنّها " تعليل صريح للتوكّل عليه تعالى بكونه ﷺ على الحقّ المبين أو الفاصل بينه وبين الباطل أو بين المحقّ والمبطل، فإنّ كونه ﷺ كذلك يوجب الوثوق بحفظه تعالى ونصرته وتأييده لا محالة" (١).

- وفي وجه تأكيد معنى التوكّل في قلب الرسول ﷺ وتقوية الأمر به يقول السعدي أيضاً : " (إنّك على الحقّ المبين) الواضح، والذي على الحقّ يدعو إليه ويقوم بنصرته أحقّ من غيره بالتوكّل، فإنّه يسعى إلى أمر مجزوم به معلوم صدقه لاشك فيه ولا مرية . وأيضاً فهو حق في غاية البيان لا خفاء به ولا اشتباه ، وإذا قمت بما حملت وتوكّلت على الله في ذلك فلا يضرّك ضلال من ضلّ وليس عليك هداهم .." (٢).

فوائد ولطائف :

الأولى : في توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ بقوله تعالى (إنّ ربك يقضي بينهم بحكمه ..) وإسناد القضاء إلى الله في شأنه بعنوان الربوبية إيماء بأنّ القضاء سيكون مرضياً له وللمؤمنين (٣).

---

(١) تفسير أبي السعود : ج٦ ص٢٩٩ .

(٢) تفسير السعدي : ج٥ ص٦٠٠ .

(٣) انظر: التحرير والتنوير ج٢٠ ص٣٢.

الثانية : في وجه الحكمة بذكر صفتي العزة والعلم لله سبحانه في قوله : (إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم) يقول صاحب البحر المحيط : " ولّما كان القضاء يقتضي تنفيذ ما يقضي به والعلم بما يحكم به جاءت هاتان الصفتان عقبه وهو العزة أي الغلبة والقدرة والعلم.." [1] أي هو العزيز الذي لا يردّ قضاؤه الغالب في انتقامه من المبطلين، والعليم بجميع الأشياء التي من جملتها ما يقضي به وما يفصل به بين المبطلين والمحقين[2].

الثالثة: إنّ خطاب الله تعالى لنبيه ﷺ بقوله (إنّك على الحق المبين) لم يُخاطب أحدٌ من رسله بمثله ، فهو شهادة له من ربه -عزّوجلّ- بعظم حاله وشأنه القائم على الحقّ والملتزم به ؛ وذلك لما دلّ عليه حرف (على) من التمكّن [3]. وهو شبيه في الاعتبار بقوله تعالى في شأن خلقه ﷺ (وإنّك لعلى خلق عظيم) [4]، فجمع له ﷺ الغاية في نفسه بدينه وخُلُقِه وبالحقّ الذي التزمه وقام عليه هذا الدين والخلق.

الرابعة : إنّ في ذكر الله تعالى فعل التوكّل بعنوان اسم الجلالة بقوله (فتوكّل على الله) تأييداً وتأكيداً للأمر بالتوكّل على الله تعالى؛ ذلك لأن هذا الاسم العَلَم الجليل لله – عزّوجلّ- يتضمّن معاني الكمال كلّها، ومن أعلاها العدل في القضاء ونصر المحقّ[5].

الخامسة: وإنّ في قوله تعالى (فتوكّل على الله إنك على الحق المبين) إشارة إلى أنّ صاحب الحقّ والذي يعلم أنّ الحق في جانبه حقيق بالوثوق بأنّ الله تعالى

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان : ج٧ ص٩٦ .

(٢) انظر: تفسير الآلوسي ج٢٠ ص١٩؛ محاسن التأويل ج١٣ ص٨٥ .

(٣) انظر: التحرير والتنوير ج٢٠ ص٣٣ .

(٤) سورة القلم : الآية (٤).

(٥) انظر: تفسير الآلوسي ج٢٠ ص١٩؛ التحرير والتنوير ج٢٠ ص٣٤ .

ناصره ومؤيّده ومظهر حقّه ، وأنّه سبحانه لن يخذله ولو بعد حين .. وفي هـذا بلا ريب درسٌ وعبرةٌ للدعاة إلى الله تعالى أصحاب الحقّ بأن يتمسكوا بالحقّ الذي يدعون إليه ولا يرجعوا عنه وليثقوا بنصرة الله لهم ، وليثبتوا فإنّهم منصورون وغالبون بإذن الله تعالى . (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنّهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون) (١).

المبحث الثاني : صلة الأمر بالتوكّل بما بعده .

لقد سبق وأن ذكرت أنّ الله عزّوجلّ لم يأمر رسوله ﷺ بالتوكّل عليه أمراً مجرّداً ؛ بل بيّن له علّة مهمة في تحقيق التوكل ولزومه بأن قال له بعده (إنك على الحقّ المبين) وأقول ههنا أنّه لم يقف الأمر عند ذكر هذه العلّة فقط؛ بل أتبعه سبحانه في الآيات من بعد بعلّة أخرى وهي ما جاءت في قوله تعالى (إنّك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) (٢)؛ ذلك لأنّه إذا علم ﷺ أنّ حال المعرضين عن الحقّ – لانتفاء جدوى السماع ونفعه – كحال الموتى أو كحال الصمّ الذين لايسمعون ولا يفهمون وكالعمي الذين لايبصرون ولا يهتدون، إذا علم هذا صار سبباً قوياً في إظهار مخالفتهم وعدم الاعتداد والمبالاة بهم؛ وإذ لم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم ؛ فلزم حينذلك الاعتماد على الله تعالى وتفويض الأمر كلّه إليه في شأنهم ودفع سوئهم وشرهم والثبات على تبليغ الدعوة إلى الحقّ وإن خالف منهم من خالف(٣).

---

(١) سورة الصافات : الآيات (١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣) .

(٢) سورة النمل : الآيتان (٨٠ ، ٨١).

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري ج٣ ص١٥٢؛ غرائب القرآن للنيسابوري ج٢٠ ص١٦؛ تفسير أبي السعود ج٦ ص٢٩٩؛ تفسير الآلوسي ج٢٠ ص١٩؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص١٤٦؛ التحرير والتنوير ج٢٠ ص٣٤ .

وبيّن الفخر الرازي هذه العلّة بقوله : " وإنما حسن جعله سبباً للأمر بالتوكّل، وذلك لأنّ الإنسان ما دام يطمع في أحد أن يأخذ منه شيئاً فإنّه لا يقوى قلبه على إظهار مخالفته ، فالله سبحانه قطع محمداً ﷺ عنهم بأن بيّن له أنّهم كالموتى وكالصمّ وكالعمي فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل، وهذا سبب لقوّة قلبه ﷺ على إظهار الدين كما ينبغي "(١).

- هذا ويختم هذا المقام الكريم بتأكيده سبحانه لمعنى هذا التعليل ببيان حصر الانتفاع بدعوته والاهتداء بهديه فيمن آمن بآياته وأسلم دينه له وهو قوله تعالى (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)، وفي هذه العبارة الخاتمة لهذا المقام حثٌّ له ﷺ على الاجتهاد والحرص في دعوة هذه الفئة المؤمنة المنتفعة بآيات الله تعالى والساعية لطلب المزيد من الإيمان وإسلام الدين كلّه لربّها سبحانه وتعالى.

فوائد ولطائف :

الأولى : إنّ في تقييد النفي في إسماع الصمّ بزمان تولّيهم مدبرين بقوله تعالى (ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين) تكميلاً وتتميماً للتشبيه وتأكيداً للنفي ومبالغة فيه، لأن تلك الحالة أوغل في انتفاء إسماعهم وانتفاعهم ، أي أنّهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحقّ فهم معرضون عن الداعي مولّون على أدبارهم، فإن الأصمّ لايسمع الدعاء إذا كان مقبلاً فكيف إذا كان معرضاً عنه موليا مدبراً (٢).

---

(١) التفسير الكبير : ج ٢٤ ص٢١٦ .

(٢) انظر: تفسير البغوي ج٣ ص٤٢٨؛ تفسير الكشاف ج٣ ص١٥٢؛ تفسير أبي السعود ج٦ ص٣٠٠ .

الثانية : وفي قوله تعالى (وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم) تكرار لتشبيه المشركين في إعراضهم عن الحق بأن شبهوا بالعمي بعد أن شبهوا بالموتى وبالصمّ؛ وذلك إطناباً في تشنيع حالهم الموصوفة في انتفاء اتباعهم للإسلام .

هذا وقد عُدِلَ في هذه الجملة عن صيغتي النفيين السابقين في قوله تعالى (إنّك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء ..) الواقعين على مسندين فعليين إلى تسليط النفي هنا على جملة إسمية للدلالة على ثبات النفي ، وأكّد ذلك الثبات بالباء لتأكيد النفي ومبالغته[1].

الثالثة : إيثار التعبير بالمضارع في قوله تعالى (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ليشمل من آمنوا من قبل؛ فيفيد استمرار إيمانهم ومن سيؤمنون من بعد[2].

الرابعة : التفريع بالفاء بقوله تعالى (فهم مسلمون) تعليل لوصفهم بالإيمان مع إفادته الدوام والثبات عليه ؛ لأنهم إذا آمنوا صار الإسلام راسخاً فيهم ومتمكناً منهم [3].

الخامسة: إيراد الإسماع في النفي والإثبات دون ذكر الهداية مع قربها لما أن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية[4].

وبهذه الفوائد أختم الكلام حول هذا الموضع الكريم من مواضع أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه في آيات كتابه ، ولله الحمد والمنّة .

---

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ج١٣ ص٨٥؛ التحرير والتنوير ج٢٠ ص٣٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ج٢٠ ص٣٨.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ج٦ ص ٣٠٠؛ تفسير الآلوسي ج٢٠ ص٢١؛ محاسن التأويل ج١٣ ص٨٥؛ فتح القدير ج٤ ص ١٤٦؛ التحرير التنوير ج٢٠ ص٣٨.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود ج٦ ص ٣٠٠ .

" الفصل الثامن "

" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد نهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين " – في سورة الأحزاب –

تقديم :

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه في موضعين من سورة الأحزاب؛ أوّلهما في فاتحة السورة، وثانيهما من بداية الآية الخامسة والأربعين وحتى الآية الثامنة والأربعين ، وكلا الموضعين يأتي فيهما الأمر بالتوكّل بعد نهي له ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين ، ولذا قرنت بينهما في فصل واحد ، إلاّ أنّ الموضع الأول يأمر الله تعالى فيه نبيه ﷺ باتباع وحيه بين النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين والأمر بالتوكّل عليه، وأما الموضع الثاني فيأمر الله تعالى فيه نبيّه ﷺ بالإعراض عن الكافرين والمنافقين بين النهي عن طاعتهم والأمر بالتوكّل عليه، وعلى هذا فكان لابد من تخصيص كلّ موضع بالدراسة والتحليل والبيان والتوجيه في مبحث مستقلّ على النحو التالي :

المبحث الأول: الأمر بالتوكّل بعد النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين والأمر باتباع الوحي.

قال الله تعالى : (يا أيها النبيّ اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً . واتبع ما يوحى إليك من ربّك إن الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً) (١).

---

(١) سورة الأحزاب : الآيات (١ ، ٢ ، ٣) .

مطلب : مناسبة الأمر بالتوكّل في هذا المقام .

ينادى الرسول ﷺ في هذه السورة الكريمة خمس مرات في افتتاح أغراض مختلفة من التشريع بعضها خاص به وبعضها يتعلّق بغيره وله ملابسة به، ويأتي النداء الأوّل من هذه النداءات في فاتحة السورة الكريمة؛ وكأنّ ذلك يشير إلى أنّ الأهمّ من سوق هذه السورة ونزولها هو فيما يتعلّق بأحواله عليه الصلاة والسلام .

وجاء هذا النداء الأول – والذي حوى في آخره أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكل عليه – جاء في الغرض الأصلي لبقية الأغراض[1]، وهو في تحديد واجبات رسالته نحو ربّه تعالى ، وهو ما تضمّنته هذه الآيات الثلاث من النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين واتباع وحي الله عزّوجلّ، مع ما ذكر في بدايتها من الأمر بالتقوى وما ختمت به في الأمر بالتوكّل على الله تعالى .

- هذا وابتداء النداء بالأمر له ﷺ بتقوى الله تعالى فيه تمهيد وتوطئة لنهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين؛ وليحصل من الجملتين حصر وقصر تقواه على التعلّق بالله دون غيره ، وذلك مع ما يكون من تعظيم النهي لتقدّم الأمر بالتقوى عليه[2] .
- وتأكيداً لهذا النهي وبياناً للمصدر الذي يتلقّى منه ﷺ والجهة التي يوليها الطاعة والولاء والاتباع قال الحقّ سبحانه (واتبع ما يوحى إليك من ربك

---

(١) النداء الثاني جاء لافتتاح غرض التنويه بمقام أزواجه واقترابه من مقامه ، والنداء الثالث لافتتاح بيان تحديد تقلبات شؤون رسالته في معاملة الأمة، والنداء الرابع لافتتاح غرض أحكام تزوجه وسيرته مع نسائه ، والنداء الخامس في غرض تبليغ آداب النساء من أهل بيته والمؤمنات. (انظر : التحرير والتنوير ج٢١ ص ٢٤٩) .

(٢) انظر: تفسير البيضاوي ج٤ ص١٥٨؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص٢٥١ .

إن الله كان بما تعلمون خبيراً) [1] فوحي الله – تبارك وتعالى – هو المصدر الحقيق بالاتباع والطاعة ، ومع هذا الهدف والغرض العام الذي تؤدي إليه هذه الآية الكريمة فهي تمهيد – أيضاً – بالخصوص لما يرد من الوحي في شأن حكم التبني وما يتصل به، ومراعاة لهذا الخصوص ذُيِّل هذا الأمر وختم بقوله تعالى (إنّ الله كان بما تعملون خبيراً)، وذلك تعليلاً لاتباع الوحي وتأنيساً به، أي فلا تتريّثوا في امتثال أمره أو تترددوا لأنّه تعالى خبير بما في أنفسكم وعوائدكم، أي فإنّه يوحي عن خبرة بكم وبما تعملون ، فإذا أبطل شيئاً مما أنتم عليه من أحوالكم ؛ فإنّ إبطاله من تعلّق علمه ومعرفته بمصالحكم في لزوم تغييره أو إبطاله[2] . وإلى هذا أشار القرطبي بقوله عن الأمر باتباع الوحي هنا : " وفيه زجر عن اتباع مراسم الجاهلية وأمر بجهادهم ومنابذتهم ، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص" [3].

- هذا ولما أُمِر ﷺ بتقوى الله تعالى واتباع وحيه ونهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، والتي تتضمن التحذير من طاعتهم واستشارتهم والاستماع لآرائهم واتباع أهوائهم تنبيهاً له على عداوتهم له ولدينه؛ إذ لن يدعونه إلا بما فيه الضرر له والوهن لدينه الحقّ ، لّما كان الشأن كذلك؛ وإذ لا معين له ﷺ إلا الله تعالى على التقوى واتباع الوحي وإقامة أمر الدين مع اجتناب طاعة الكافرين والمنافقين وما يتبعها من كيد ومكر منهم وابتغاء

---

(١) سورة الأحزاب : الآية (٢) .

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ج٣ ص٢٢٥؛ نظم الدرر ج٦ ص٧١؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٢٥٣؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص٢٥٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج ١٤ ص١١٨ .

الإضرار به وبدعوته؛ حينذلك ناسب أنّ الله -عزّوجلّ- يأمره بما فيه تأييد له وتثبيت على الحقّ والتقوى؛ وبما فيه دفع ومقاومة لما قد يحصل من أهل الكفر والنفاق من معاداة وإضرار، وذلك هو الأمر بالتوكّل عليه سبحانه، إذ هو الذي بيده الثبات وبحوله وقوّته يندفع كلّ كيد ومكر وضرّ؛ فما أن يكل ﷺ أمره وتدبيره على ربّه ؛ ويفوّض شأنه كلّه إليه إلاّ كفاه، ولذلك قال سبحانه بعد الأمر بالتوكّل عليه: (وكفى بالله وكيلاً) (١) .

- وللشيخ عبد الرحمن السعدي كلام جميل في هذه الجملة الكريمة حيث قال : " (وكفى بالله وكيلاً) توكل إليه الأمور فيقوم بها وبما أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد ، وأنّه أرحم بعبده من نفسه، ومن والديه ، وأرأف به من كلّ أحد، خصوصاً خوّاص عبيده الذين لم يزل يربيهم ببرّه ويدرّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة. خصوصاً وقد أمره بإلقاء أموره إليه ووعده أن يقوم بها ، فهناك لاتسأل عن كلّ أمر يتيسّر وصعب يتسهّل وخطوب تهون وكروب تزول وأحوال وحوائج تقضى وبركات تنزل ونقم تدفع وشرور ترفع، وهناك ترى العبد الضعيف الذي يفوّض أمره لسيّده قد قام بأمور لاتقوم بها أمّة من النّاس وقد سهّل الله عليه ما كان يصعب على فحول الرجال وبالله المستعان" (٢).

---

(١) انظر: تفسير الطبري ج٢١ ص٧٤؛ تفسير القرطبي ج١٤ ص١٦٨؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٥ ص١٩١؛ نظم الدرر للبقاعي ج٦ ص٧١ ؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص١٥٨؛ تفسير السعدي ج٦ ص١٩٥-١٩٦؛ التفسير الواضح لحجازي ج٢ ص٢٣٤؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص٢٥٣ .

(٢) تفسير السعدي : ج٦ ص١٩٤-١٩٥ .

وقال صاحب نظم الدرر في هذه الجملة أيضاً : " ولما كان التقدير فإنّه يكفيك في جميع ذلك عطف عليه قوله (وكفى بالله وكيلاً) أي إنّه لا أكفى منه لكلّ من وكله في أمره ، فلا تلتفت في شيء من أمرك إلى شيء غيره" (١).

مطلب : فوائد ولطائف .

الأولى : يُلاحظ بالاستقراء أنّ الله -عزّوجلّ- لم ينادِ أو يخاطب رسوله محمداً ﷺ في القرآن الكريم إلا بوصف النبوّة أو الرسالة دون اسمه العلم، وما ذاك إلاّ تعظيماً لقدره وتشريفاً له وتكريماً ، وتنويهاً بشأنه، وتنبيهاً على سموّ مكانته، وذلك بسبب فضل وصف النبوّة والرسالة وعظمه ، هذا مع ما في هذا من الإشارة إلى نبوِّ مقامه أن ينادى باسمه ويخاطب به مثل غيره(٢) .

الثانية : يستفاد من أمره ﷺ بالتقوى فيما ورد في القرآن الكريم – مع كونه أتقى خلق الله تعالى – أمران : (أحدهما) طلب الثبات عليها والمزيد ، ذلك أنه متى أمر أحد بشيء وهو متلبِّسٌ به فإنّما معناه طلب المداومة عليه والازدياد منه(٣). (وثانيهما) التنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنّه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى(٤).

---

(١) نظم الدرر للبقاعي : ج٦ ص٧٢ .

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ج٣ ص٢٢٥؛ البحر المحيط لأبي حيان ج٧ ص٢١٠؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص٨٩ ؛ حاشية الصاوي ج٣ ص٢٦٧ ، تفسير الآلوسي ج٢١ ص١٤٤؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص٢٥١ .

(٣) انظر: تفسير الثعالبي ج٣ ص٢١٧ ؛ تفسير البحر المحيط ج٧ ص٢١٠ ؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص٨٩؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٢٥٢ .

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤ .

الثالثة: إنّ في ختم الآية الأولى بقوله تعالى (إنّ الله كان عليماً حكيماً) تعليلاً للنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين وتأكيداً لوجوب الامتثال به، إذ إنّ صفتي العلم والحكمة لله تعالى تفيدان أنّه سبحانه يعلم جميع الأشياء من المصالح والمفاسد؛ فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة ، ولاينهى إلاّ عمّا فيه مفسدة؛ ولا يحكم إلا بما تقتضيه حكمته البالغة ، فهو الحقيق سبحانه بالطاعة دون الكافرين والمنافقين (١).

الرابعة : يشير تقديم النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين على الأمر باتباع الوحي إلى أنّ الضغط والمكر والكيد الذي كان يلاقيه ﷺ منهم في تلك الفترة بالمدينة وما حولها كان عنيفاً وشديداً ؛ مما اقتضى تقديم النهي لأهميته خشية اتباع آرائهم وتوجيهاتهم والخضوع لضغطهم ودفعهم ؛ والحال أنهم لا يريدون إلاّ الإضرار بوحدة المسلمين ومجتمعهم ومقوّمات حياتهم ولاشك أنّ للمسلمين في هذا التوجيه الربّاني للرسول ﷺ درساً وعبرة من الحذر باتباع آراء الكفرة والمنافقين في كل زمان ومكان قد يتواجدون فيه ويبتغون الإضرار والكيد بأهل الإيمان والسعي بهم إلى التخلّي عن دينهم وقيمهم ومبادئهم ، بما يُمارس من قِبلهم بشتى أساليب الضغط والكيد، فعلى أهل الإيمان الحذر والتنبّه حتى يبقى منهجهم خالصاً لله تعالى ولدينه غير مشوب بتوجيه من أعدائه.

ومن وجهة نظر أخرى مؤدّية إلى ما ذكر آنفاً ، فإنّ قوله (واتبع ما يوحى إليك من ربك) هو من قبيل عطف العام على الخاص لأهميته – التي سبق ذكرها –

---

(١) انظر: الكشاف ج٣ ص٢٢٥؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص٨٩ ؛ حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص٤٢١ ؛ حاشية الصاوي ج٣ ص٢٦٧ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٢٥٢ ؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص٢٥١ .

أي اتبع في كلّ ما تأتي وتذر من أمور الدين ما يوحى إليك من الآيات، والتي من جملتها هذه الآية الآمرة بتقوى الله والناهية عن طاعة الكافرين والمنافقين[1].

الخامسة : إنّ في التعرّض لعنوان الربوبية لله تعالى في قوله (واتبع ما يوحى إليك من ربك) تأكيداً لوجوب الامتثال بالأمر [2].

السادسة : في إفراد الخطاب للنبي ﷺ بقوله (واتبع ما يوحى إليك من ربّك) ثمّ جمعه بما يشمله وأمّته في قوله (إنّ الله كان بما تعملون خبيراً) إشارة إلى أنّ فيما سينزل من الوحي مشتملاً على تكليف فيه تغيير حالة كان النبي ﷺ مشاركاً لبعض الأمّة في التلبّس بها، وهو حكم التبنّي، حيث كان متبنياً لزيد بن حارثة رضي الله عنه من قبل بعثته. وهذه الإشارة لطيفة ودقيقة ذكرها ابن عاشور ولم أجدها عند غيره من المفسرين[3].

السابعة : قرأ الجمهور (بما تعملون خبيراً) بتاء الخطاب في (تعملون) على أنّه خطاب للنبي ﷺ وأمّته، وقرأ أبو عمرو : (بما يعملون) بياء الغيبة على أنّه التفات، بأنّه يرجع إلى الكافرين والمنافقين، والغاية منه أنّه سبحانه عليم وخبير بمكرهم وكيدهم فيدفعه ويحاسبهم عليه ويجازيهم به، ويجوز أيضاً رجوعه للنّاس كلّهم، فيشمل المسلمين والكافرين والمنافقين ليفيد مع تعليل الأمر بالاتباع تعريضاً بالكفار والمنافقين في اطلاع الله عليهم ومحاسبته إيّاهم[4].

---

(١) انظر: تفسير الآلوسي ج٢١ ص١٤٤ .

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ج٧ ص٨٩ ، تفسير الآلوسي ج٢١ ص١٤٤ .

(٣) انظر: التحرير والتنوير ج١ ص ٢٥٢ .

(٤) انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ ص٣٤٧؛ الكشاف للزمخشري ج٣ ص٢٢٥ ؛ تفسير البحر المحيط ج٧ ص٢١٠ ؛ تفسير القرطبي ج١٤ ص١١٨؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص١٥٨ ؛ التحرير والتنوير ج٢١ ص٢٥٣ .

هذا ويحصل من القراءتين اطلاع الله تعالى على عباده جميعاً مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم فيجازي كلاً بحسبه، فينصر المؤمنين ويدفع عنهم ، ويخذل الكفرة والمنافقين ويردّ كيدهم في نحرهم .

الثامنة : إنّ الله تعالى كما أرسل رسوله ﷺ برسالة هذا الدين العظيم ؛ فإنه يثبته عليه ويدلّه على ما يقيمه به، وكأنّي بهذه الآيات الثلاث قد حوت مقوّمات الدعوة والداعية إلى الله تعالى في ثلاثة عناصر : تقوى الله تعالى واتباع وحيه والتوكّل عليه مع مخالفة الكافرين والمنافقين ، فهذا هو قوام الدين كلّه ، وهو الذي يقيم الدعوة على منهج واحد واضح خالص لاتشوبه شائبة من هوى أو مخالفة .. تقوى لله تعالى وتوكّل عليه بكل ثبات ويقين ، واتباع للكتاب والسنّة في غير ما إفراط ولا تفريط، وبراءة ومخالفة للكافرين والمنافقين دون مساومة أو مجاملة ، ولن يقوم الحقّ وأهله الداعون إليه إلاّ بهذه العناصر، فحريٌّ بالدعاة إلى الله تعالى أن يتمثلوا بها ويرعوها حقّ رعايتها.

التاسعة : خاطرة أخرى بدت لي في ابتداء خطاب الرسول ﷺ بالأمر بالتقوى وختمه بالأمر بالتوكّل وهما – أي التقوى والتوكّل – أمران قلبيان ، فبدا لي أنّ في ذلك إشارة إلى أنّ الدعوة والرسالة لن تقوم في قلب المؤمن وحياته إلا بوجود هذين الأمرين القلبيين: تقوى لله تصاحبه في كلّ حركاته وكلماته وسكناته تقوده إلى طاعة الله ورسوله ﷺ وتجنبه المعاصي وطاعة الكافرين والمنافقين وأعداء الدين، وتوكل على الله تعالى يسوقه فيثبته على الطريق ويطمئنه ويجعله واثقاً بربّه، ويحمل همّه وحزنه ويعينه على تحمّل المشاقّ وأذى المعارضين والمارقين.. والله أعلم بمراده .

وبهذه الخاطرة أختم الكلام عن هذا الموضع الكريم في فاتحة سورة الأحزاب، وأنتقل من بعد إلى الموضع الثاني بهذه السورة الكريمة والله أسأل التوفيق والسداد.

المبحث الثاني : الأمر بالتوكّل بعد النهي عن طاعة الكافرين والإعراض عنهم

قال الله تعالى : (يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً) (١).

مطلب : مناسبة الأمر بالتوكّل في هذا المقام .

يجيء أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه في هذا الموضع الكريم في ختام آيات ابتدأها سبحانه بندائه ﷺ أيضاً، وهو النداء الثالث بهذه السورة ، ذلك أنه –عزّوجلّ– لّما أبلغه بالنداء الأوّل ما هو متعلّق به في تحديد واجباته نحو رسالته تعالى ناداه ههنا بأوصاف أودعها إيّاه للتنويه بشأنه وزيادة رفعة مقداره، وبيّن له فيها أركان رسالته؛ قاصداً وصف تعلّقات رسالته بأحوال أمّته وأحوال الأمم السالفة ، وقد ذكر له ههنا خمسة أوصاف جمعها قوله عزّوجلّ (يا أيّها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) ، فهذه الأوصاف جمعت المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها ومجامعها التي تنطوي عليها ويرجع هو إليها ﷺ ، ومن أجل ذلك اقتصر عليها ههنا من بين أوصافه الكثيرة عليه الصلاة والسلام(٢).

وبعد ذكر هذه الأوصاف الجليلة يأمر الله تبارك وتعالى نبيّه ﷺ بأربعة أوامر : أوّلها قوله تعالى (وبشر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً)، والعطف بالواو –هنا– على مفهوم تقديره إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً..إلخ فقم بما تقتضيه هذه

---

(١) سورة الأحزاب : الآيات من (٤٥) إلى (٤٨).

(٢) انظر: تفسير السعدي ج٦ ص٢٣١ ، التحرير والتنوير ج٢٢ ص٥٢ .

الأوصاف من أمور الدعوة والرسالة وشؤونها ، وانظر من بعدُ في أحوال الناس تجاه هذه الرسالة وبشر من آمن منهم واتبعك بأنّ لهم من الله ثواب أعمالهم الموعود بها وزيادة من عنده كما قال سبحانه (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) [1] ، وكما بيّن سبحانه هذا الفضل الكبير أيضاً بقوله : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير) [2] ، ثمّ جاء الأمر الثاني في مقابلة الأمر الأول بتبشير المؤمنين وهو قوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) وقد سبق بيان هذا النهي في المبحث السابق . هذا ولمّا أمره تعالى بعدم طاعة الكافرين والمنافقين أمره بأمر ثالث متعلّق بأسلوب تعامله معهم ومقابلة ما يصدر من أذاهم ومكرهم وكيدهم فقال له تعالى: (ودع آذاهم) أي اترك أذاهم بالإعراض عنهم ولا تكترث ولا تبال بما يؤذونك به، ولا تغتمّ وتحزن من أجله؛ فإنك أجلّ من أن تهتم بذلك، وترفّع عن مؤاخذتهم على ما يصدر منهم تجاهك . وهذا إعراض عن أذى خاص به ﷺ لا عموم له ، فهو بمنزلة المعرّف بلام العهد ، وليست آيات القتال بناسخة له، فهو ﷺ يترك أذاهم معرضاً عنهم، ويكلهم إلى من بيده معاقبتهم ومؤاخذتهم، وهو الله تعالى ؛ ولذلك ناسب بعده أن يأمره عزّوجلّ بالتوكل عليه وهو الأمر الرابع الخاتم إذ قال له (وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً) [3]. وفي هذه المناسبة قال الشيخ عبد الرحمن السعدي :

---

(١) سورة يونس : الآية (٢٦).

(٢) سورة الشورى : الآية (٢٢).

(٣) انظر: تفسير البغوي ج٣ ص٥٣٥ ؛ تفسير الثعالبي ج٣ ص٢٣٢ ؛ تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٠٥؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٥ ص٢١٨؛ تفسير ابي السعود ج٤ ص٢٨٠؛ تفسير البيضاوي ج٤ ص١٦٥ ؛ التحرير والتنوير ج٢٢ ص٥٨ .

" وتوكل على الله في إتمام أمرك وخذلان عدوّك "[1]. وبمثله قال ابن عاشور : " أي اعتمد على الله في تبليغ الرسالة وفي كفايته إياك شرّ عدوّك"[2]. ومن قبلهما قال صاحب نظم الدرر موضحاً هذه المناسبة أيضاً : " ولما كان ترك المؤذي والإعراض عنه استسلاماً في غاية المشقة ذكره بالدواء فقال : (وتوكّل على الله) أي الملك الأعلى في الانتصار لك منهم وإبلاغ جميع ما يأمرك به ، وفي جميع أمرك لأنّ الله متمّ نورك ومظهر دينك "[3].

-هذا وتأكيداً لكفايته تعالى لمن توكّل عليه، وتأنيساً لرسوله محمد ﷺ وإدخالاً للطمأنينة في قلبه ختم سبحانه أمره بالتوكّل عليه بقوله (وكفى بالله وكيلاً) . قال القرطبي رحمه الله تعالى : " أمره بالتوكّل عليه وآنسه بقوله (وكفى بالله وكيلاً)" [4].

ولا ريب أنّ في هذه الجملة الكريمة تثبيتاً له ﷺ وتأنيساً على طريق الرسالة الإلهية وتحمّل مشاقها والصبر على ما يلاقيه في سبيلها ، وهو سبحانه كاف عبده وخليله ومصطفاه ﷺ (أليس الله بكاف عبده) [5] . بلى والله إنه لكافيه وكاف عباده المؤمنين الموحدين السائرين على نهجه وخطاه والمتبعين لسنّته وهديه.

---

(١) تفسير السعدي : ج٦ ص ٢٣٤ .

(٢) التحرير والتنوير : ج٢٢ ص٥٩ .

(٣) نظم الدرر للبقاعي : ج٦ ص ١١٧ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج١٤ ص٢٠٢ .

(٥) سورة الزمر : الآية (٣٦) .

فوائد ولطائف :

الأولى : في تقديم البشارة على النذارة بقوله تعالى (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) [1] إشارة إلى ما يغلب عليه شأنه ﷺ في دعوته من التبشير؛ إذ أرسله الله رحمة للعالمين ، كما يشير إلى ذلك كثرة عدد المؤمنين من أمّته وهم أهل البشارة[2].

الثانية : إنّ في تقييد وصفه ﷺ بالدعوة إلى الله دون سائر الأوصاف الأخرى بقوله تعالى (بإذنه) أي بأمره وإرادته وقدره[3] ؛ إشارة إلى أمرين : (أحدهما) أنّه ﷺ لم يكن إلا داعياً إلى الله تعالى مستقيماً على أمره ونهيه؛ فما هو بمبتدع ولا بقائل من عنده شيئاً، وإنّما هو ملتزم بإذن الله له وأمره إيّاه لايتعدّاه، وهو بهذا قدوة للمؤمنين في الاتباع واجتناب الابتداع في دين الله تعالى . و (ثانيهما) أنّ ما يقوم به ﷺ من شأن الدعوة إلى الله تعالى إنّما هو بتوفيق الله تعالى وإرادته وقدره وتيسيره، وإلاّ فإن أمانة الدعوة ومسؤولياتها شاقة وصعبة، فمن فضل الله عليه وعلى أمّته أن أعانه عليها ويسّر له طريقها وسبيلها.

الثالثة : في وصفه ﷺ بالسراج المنير تشبيه بليغ، أي أنّه مرسلٌ من الله تعالى كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لبس فيها؛ والحقّ الذي كالشمس في إشراقها وإضاءتها لايحجدها إلا معاند مكابر ، وهي الهداية التي لاتترك للباطل شبهة إلا وضحتها وأوقفت الناس على دخائلها كما يضيء السراج الوقاد ظلمة المكان.. وبهذا التشبيه الشامل لحاله ﷺ وحال رسالته التي جاء

---

(١) سورة الأحزاب : الآية (٤٥).

(٢) انظر: التحرير والتنوير ج ٢٢ ص٥٣ .

(٣) انظر: تفسير البيضاوي ج٤ ص١٦٥؛ تفسير السعدي ج٦ ص ٢٣٢.

بها يكون هذا الوصف شاملاً لجميع الأوصاف السابقة فهو كالفذلكة والتذييل[1].

الرابعة : وفي وصف السراج بأنّه منير مع أنّ الإنارة من لوازم السراج؛ لأنّ من السرج ما لايضيء إذا قلّ زيته أو دقّت فتيلته[2]. ومن جهة أخرى فهو كوصف الشيء بالوصف المشتقّ من لفظه لإفادة قوة معنى الاسم في الموصوف به الخاصّ، فإنّ هدى النبي ﷺ هو أوضح الهدى وإرشاده أبلغ إرشاد[3].

الخامسة: في تأكيد أمر كفاية الله تعالى لنبيه ﷺ بقوله (وكفى بالله وكيلاً) يقول صاحب نظم الدرر : " وأكّد أمر الكفاية بإيجاد (الباء) في الفاعل تحقيقاً لكونه فاعلاً، وميّز النسبة بالفاعل في الأصل لزيادة التأكيد في تحقيق معنى الفاعل فقال (وكيلاً)" [4].

السادسة : ولابن عاشور لطيفة في تناسب الجمل الطلبية آخر هذه الآيات مع الجمل الإخبارية قبلها من الجدير أن أختم بها الحديث عن هذا الموضع الكريم، وذلك قوله : " فقد جاءت هذه الجمل الطلبية مقابلة وناظرة للجمل الإخبارية من قوله (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً...) فقوله (وبشر المؤمنين) ناظراً إلى قوله (مبشراً) ، وقوله (ولا تطع الكافرين والمنافقين) ناظراً إلى قوله (ونذيراً)، لأنّه جاء في مقابلة بشارة المؤمنين كما تقدّم ، وقوله (ودع أذاهم) ناظراً إلى قوله (شاهداً) كما علمت، وقوله (وتوكّل على الله) ناظراً إلى قوله

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٠٥؛ تفسير القرطبي ج١٤ ص٢٠٢؛ فتح القدير ج٤ ص٢٨٠؛ التحرير والتنوير ج٢٢ ص٥٥ .

(٢) انظر: تفسير القرطبي ج١٤ ص٢٠٢ .

(٣) انظر: التحرير والتنوير ج ٢٢ ص٥٥ .

(٤) نظم الدرر للبقاعي : ج٦ ص١١٧ .

(وداعياً إلى الله)، وأما قوله (وسراجاً منيراً) فلم يذكر لـه مقابـل في هـذه المطالب إلا أنه لما كان كالتذييل للصفات كما تقدّم ناسب أن يقابله مـا هـو تذييل للمطالب وهو قوله (وكفى بالله وكيلاً) " [1].

وبهذه اللطيفة أختم كلامي حول هذا الموضع الثاني من مواضع أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتوكّل عليه في سورة الأحزاب ، وبه أصل إلى ختـام هـذه الدراسـة القرآنية ولله الحمد والمنّة.

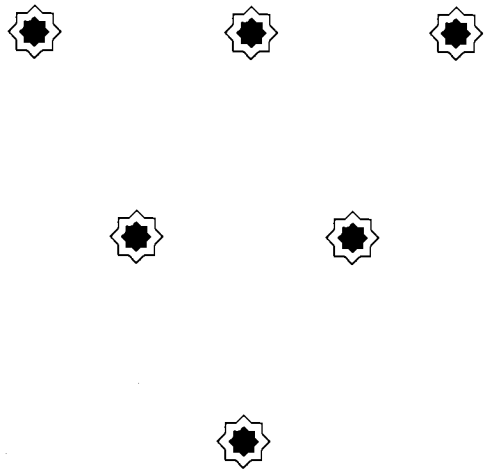

(١) التحرير والتنوير : ج٢٢ ص ٥٩ .

" الخاتمة "

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، أحمده سبحانه حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ويكافئ نعمه ومزيده، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على من بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين وقدوة للعابدين . وبعد :

فما أطيبها وأسعدها من أيّام وساعات مباركات عشت فيها باحثاً وطالباً متأمّلاً في آيات كريمات يخاطب الله تعالى فيها خير خلقه وخاتم رسله وخليله ومصطفاه بأمرٍ فيه طلب المزيد من عمق الصلة وتصفية الخلّة وتجريد التوحيد، مع ما فيه من تثبيته على الحقّ وتمكين الصبر في نفسه الشريفة وبلوغه أعلى منازل الإيمان من الرضا والثقة والطمأنينة والسكينة.. إنّه خطابه تعالى لرسوله ﷺ في الأمر بالتوكّل عليه، والذي أخذت على عاتقي تتبّع مواضعه وتلمّس حكمه وغاياته واستخراج فوائده ولطائفه متوكلاً على الله عزّوجلّ، فجدّ السير بي وانطلقت ناشداً ما قصدت سائلاً من المولى سبحانه أن يبلّغني ما أردت .. فأكرمني تعالى ومنّ عليّ بفضله وجوده فتحقّق المراد والمقصود ولله الحمد والمنّة ..

وكأنّي بهذه الآيات القرآنية ترسم للمؤمنين منهاج توكّل على ربهم وطريق ثبات على دينهم وأسلوب حياة مع بارئهم سبحانه، اقتداءً بنبيهم وحبيبهم ﷺ وهو يأمره ربّه؛ وهو الممتثل لأمره فكان خير المتوكلين.

-هذا وإنّ المتأمل في هذه المواضع القرآنية التي يؤمر فيها ﷺ بالتوكّل على ربّه، وإن كان التوكّل مطلوباً على كل حالٍ من أحواله، يجد أنها تؤكّد على أهمية التوكّل على الله تعالى وضرورته في مواطن القرار بتدبير شؤون الأمّة والدولة الداخلية والخارجية ، وذلك كما هو الشأن في آية سورة آل عمران بعد العزم حال الشورى مع أصحابه رضي الله عنهم ؛ وكما هو الشأن كذلك حال عقده السِّلْم مع المشركين في آية سورة الأنفال. ويجد المتأمّل في مواضع

أخرى التأكيد على التوكّل في مواطن التمكين لأمر الدعوة والرسالة والثبات على مبادئها وأصولها، و في مواجهة أعدائها وتربية الأمّة على ولائها لربّها ودينها وبراءتها من الكفر والنفاق وأهلهما ، وذلك كما هو الشأن في آيات سوريتي النساء والأحزاب بعد النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين والإعراض عنهم ، وكما هو الشأن في خاتمة هود بعد الأمر بعبادته من بعد إبلاغ الكلمة الأخيرة الفاصلة للمشركين في تهديدهم وإنذارهم إن لم يؤمنوا ، وكما هو الشأن في إبلاغهم بالاستغناء عنهم في آية سورة الفرقان ، وإن كانوا من عشيرته الأقربين بعد إنذارهم في آية سورة الشعراء ، وكما هو الشأن أيضاً مع أهل الكتاب الطاعنين في كتاب الله عزوجلّ فيأمره ربّه تعالى بالتوكّل عليه في معرض إخباره بقضائه بين المختلفين بشأنه في آية سورة النّمل.. وكلّ هذه المواضع الكريمة تقرّر ما ذكرته آنفاً ، وإنّ القارئ الكريم لهذه الورقات سيلمس ذلك بإذن الله تعالى فيما قمت به من الدراسة والتحليل والتوجيه مستعيناً بعد الله تعالى بما جمعته من أقوال المفسرين وأهل العلم .. ثم إنّ هناك كما ذكرت في المقدّمة جوانب أخرى بحاجة إلى دراسة وتحليل وتوجيه في حديث القرآن الكريم عن التوكّل وأهله أرجو أن تكون محلّ عناية طلاب العلم. وختاماً أرجو أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة القرآنية بما يفيد أهل الحقّ والراغبين في تتبع هدي النبي ﷺ في عمق صلته بربّه وقوة إيمانه ويقينه به والسير على خطاه ودربه، وأسأل الله تعالى أن يتقبل منّي عملي هذا ويغفر لي ما كان فيه من خطأ أو قصور أو نسيان. آمين

وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين وصلّ اللهم وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمت كتابته في يوم الجمعة الأغرّ الموافق للثاني
من شهر جمادي الآخرة من العام السادس والعشرين
بعد الأربعمائة والألف من الهجرة النبوية

(الفهارس)

١ـ " فهـــرس المراجـــع "

- القرآن الكريم .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : أبو السعود : محمد بن محمد العمادي .٩ج . بيروت – لبنان : دار إحياء التراث العربي.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني. ١٠ج . ١٣٩٣هـ/١٩٨٣م.
- أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي. ٥ ج . بيروت : مؤســـسة شـــعبان للنـــشر والتوزيع .
- تبصير الرحمن وتيسير المنان : المهايمي، علي بن أحمد بن إبـــراهيم ، الطبعـــة الثانية. ٢ج . بيروت: عالم الكتب ، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.
- تفسير ابن جزي الكلبي ، محمد بن أحمد . بيروت : دار الكتـــاب العـــربي، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
- تفسير البحر المحيط : أبو حيان ، محمد بن يوسف الأندلـــسي الغرنـــاطي، الطبعة الثانية . ٨ج . بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
- تفسير التحرير والتنوير : ابن عاشور ، محمد الطاهر . ٣٠ج . تـــونس : الدار التونسية للنشر، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٤م.
- تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء ، إسماعيل بن كثير القرشي الدمـــشقي . ٤ج . بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٥هـ.
- تفسير المنار: رضا، محمد رشيد، الطبعة الثانية. ١٢ج . بيروت: دار المعرفة

- تفسير النسفي،عبد الله بن أحمد بن محمود. الطبعة الأولى . ٢ج. بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- التفسير الواضح ، محمد محمود حجازي ، ٢ج . بيروت : دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان : السعدي، عبد الرحمن بن ناصر . تحقيق: محمد زهري النجار. ٧ج. الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤٠٤هـ.
- جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، محمد بن جرير. ٣٠ ج. بيروت: دار المعرفة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري . الطبعة الثانية . ٢٠ج. بيروت : دار الكتاب العربي.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن : الثعالبي ، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف. ٤ج. بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- حاشية الجمل على تفسير الجلالين (الفتوحات الإلهية) : العجيلي الشافعي، سلمان بن عمر، الشهير بالجمل . ٤ج . بيروت - لبنان : دار إحياء التراث الغربي.
- حاشية الصاوي على تفسير الجلالين : الصاوي، أحمد بن محمد .٤ج . بيروت : دار إحياء التراث العربي.
- حجة القراءات : ابن زنجلة، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد. حققه وعلّق عليه: سعيد الأفغاني. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

- الحجة للقراء السبعة : أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي. تحقيق: بدر الدين قهوجي – بشير جويجاتي ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م ، دمشق – بيروت : دار المأمون للتراث .

- الدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي ، جلال الدين . ٨ج . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م . بيروت – لبنان : دار الفكر .

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني:الآلوسي ، أبو الفضل ، شهاب الدين السيد محمود. ٣٠ج.بيروت : دار إحياء التراث العربي .

- زاد المسير في علم التفسير:ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد . الطبعة الثالثة . ٩ج .دمشق – بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٤هـ.

- السيرة النبوية: ابن هشام . تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. ٤ج . مؤسسة علوم القرآن .

- صحيح مسلم بشرح النووي: القشيري ، مسلم بن الحجاج – النووي ، يحيى بن شرف. تحقيق وإشراف: عبد الله أحمد أبو زينة . ٥ج . القاهرة: كتاب الشعب.

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان : النيسابوري ، نظام الدين بن محمد بن حسين القمّي . تحقيق: إبراهيم عطوة عوض. الطبعة الأولى. ٣٠ج. مصر: شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

- فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. أشرف على طبعه محب الدين الخطيب . ١٣ج . الرياض : مكتبة الرياض الحديثة.

- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن : الأنصاري ، أبو يحيى زكريا . تحقيق : محمد علي الصابوني . الطبعة الأولى . بيروت : دار القرآن الكريم، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير : الشوكاني ، محمد بن علي . تحقيق: عبد الرحمن عميرة - الطبعة الأولى . ٦ج ، مصر : دار الوفاء ، ١٤١٥هـ.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر .٤ج. بيروت : دار المعرفة.

- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها : القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب. تحقيق: محي الدين رمضان، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٧هـ. ٢ج . بيروت : مؤسسة الرسالة.

- لباب التأويل في معاني التنزيل : الخازن ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي : ٧ج. بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٩هـ.

- لسان العرب : ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . ١٥ج. بيروت : دار الفكر - دار صادر.

- محاسن التأويل : القاسمي، محمد جمال الدين ، علق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي . الطبعة الثانية ١٧٠ج. بيروت : دارالفكر ، ١٣٩٨هـ.

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : ابن قيم الجوزية. ٣ج، دار الكتب العلمية.

- معاني القرآن : الفرّاء ، أبو زكريا يحيى بن زياد . ٣ج. الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ . بيروت : عالم الكتب .

- معالم التنزيل : البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء. تحقيق: خالدعبد الرحمن العك – مروان سوار . ٤ج. بيروت : دار المعرفة . الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضعه محمد فؤاد عبد الباقي . بيروت : دار المعرفة . الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) :الفخر الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين. الطبعة الثالثة . ٣٠ج. بيروت : دار إحياء التراث العربي.

- المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد . تحقيق : محمد سيد كيلاني . بيروت: دار المعرفة.

- النشر في القراءات العشر: ابن الجزري ، محمد بن محمد الدمشقي. أشرف على تصحيحه ومراجعته: علي محمد الضَبَّاع . ٢ج. بيروت – لبنان : دار الكتب العلمية.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي ، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر . الطبعة الأولى . ٨ج. بيروت– لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

- النكت والعيون : الماوردي ، ابو الحسن علي بن حبيب . تحقيق: خضر محمد خضر . راجعه: عبد الستار أبو غدة . الطبعة الأولى ، الكويت : طباعة مقهوى . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . التراث الإسلامي ، ١٤٠٣هـ.

٢- " فهرس الآيات القرآنية "

الآيـــــــــات	رقم الآية	رقم الصفحة
(سورة البقـــرة)		
- فإن أرادا فصالاً عن تراض..	٢٣٣	١٩
- واستعينوا بالصبر والصلاة...	٤٥	٦١
(سورة آل عمران)		
- فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ...	١٥٩	١٠
- إنّ الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان ...	١٥٥	١١
- إن ينصركم الله فلا غالب لكم...	١٦٠	٢٠
(سورة النســاء)		
- ويقولون طاعـــة...	٨١	٢٣
- أفلا يتدبّرون القرآن ...	٨٢	٢٧
(سورة المائدة)		
- ياأيها الرسول بلّغ ما أنـــزل إليك من ربك..	٦٧	١٢
(سورة الأنفال)		
- وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ...	٦١	٢٩
- وإن يريدوا أن يخدعوك .. الآيات	٦٢-٦٤	٣٣
(سورة التوبة)		
- لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم...	١٢٨	١٢
(سورة يونس)		
- للذين أحسنوا الحسنى وزيادة...	٢٦	٧٨
(سورة هـــود)		
- كتاب أحكمت آياته.. الآيات	١-٢	٤٠

– وكلاً نقصّ عليك من أنباء الرسل .. الآيات	١٢٠-١٢٣	٣٦
(سورة الحجـــر)		
– ولاتحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين	٨٨	٥٦
(سورة الأنبياء)		
– وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين	١٠٧	١٢
(سورة الفرقان)		
– ويعبدون من دون الله.. الآيات	٥٥-٥٩	٤٣-٤٤
– وتوكّل على الحيّ الذي لا يموت...	٥٨	٤٤
(سورة الشعراء)		
– فلا تدع مع الله إلهاً آخر .. الآيات	٢١٣-٢١٩	٥١،٥٢،٥٣،٥٨
(سورة النمل)		
– إنّ هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل .. الآيات	٧٦-٨١	٦٢
– وقال الذين كفروا أءذا كنا تراباً .. الآيات	٦٧-٦٨	٦٢
(سورة الأحزاب)		
– يا أيها النبي اتق الله .. الآيات	١-٣	٦٩-٧١
– يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً.. الآيات	٤٥-٤٨	٧٧
(سورة الصافات)		
– ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين... الآيات	١٧١-١٧٣	٦٦
(سورة الزمر)		
– أليس الله بكاف عبده ...	٣٦	٧٩
(سورة الشورى)		
– والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات	٢٢	٧٨
– قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى...	٢٣	٥٧
– وأمرهم شورى بينهم...	٣٨	١٩

(**سورة الطور**)
- فاصبر لحكم ربّك فإنك بأعيننا... ٤٨ ٥٩
(**سورة الملك**)
- قل هو الرحمن آمنّـــا به ... ٢٩ ٤٩
(**سورة القلم**)
- وإنّك لعلى خلقٍ عظيم ٤ ٦٥
(**سورة المزّمّل**)
- ربّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ٩ ٤٨

٣- " فهرس الحديث النبوي "

الحديث	رقم الصفحة
- روى البخاري عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ... الحديث	٣
- روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لمّا أنزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله ﷺ قريشاً ... الحديث	٥٣

٤ - " فهـرس الموضوعـــات "

الموضـــــوع	رقم الصفحة
المقدمـة	٣
التمهيد	٧
الفصل الأوّل: " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد العـزم حـال الشورى " في آية سورة آل عمران .	١٠
الفصل الثاني : " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد أمره بالإعراض عن المنافقين ". في آية سورة النساء .	٢٣
الفصل الثالث : " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه حال عقده السلم مع المشركين" في آية سورة الأنفال.	٢٨
الفصل الرابع : " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد الأمر بعبادته في خاتمة سورة هود"	٣٦
الفصل الخامس : " أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد أمره بالاستغناء عن المشركين" في آية سورة الفرقان.	٤٣

الفصل السادس: ٥١

" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه حال معصية عشيرته الأقربين بعد إنذارهم ". في آية سورة الشعراء

الفصل السابع : ٦٢

" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه في معرض إخباره بقضائه بين المختلفين بشأن القرآن الكريم " في آية سورة النمل .

الفصل الثامن : ٦٩

" أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكّل عليه بعد نهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين". في سورة الأحزاب .

الخاتمة . ٨٣

الفهـــارس ٨٥

١- فهرس المراجع . ٨٦

٢- فهرس الآيات القرآنية . ٩١

٣- فهرس الحديث النبوي . ٩٤

٤- فهرس الموضوعات . ٩٥